F R A N Z K A F K A

رواية

فرانز كافكا

تَحَرِّيَّاتُ كَلَب

الأهلية

فرانز كافكا

تحريَّاتُ كلب

رواية

الأهلية

تَحَرِّيَاتُ كَلب

رواية

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail: alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردن
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

تَحَرِّيَاتُ كَلب

رواية

فرانز كافكا

ترجمة: كامل يوسف حسين

مراجعة وتدقيق: عاطف حسين

◆

الطبعة الأولى 2015

◆

تصميم الغلاف: ديمو برس
الصف الضوئي: إيمان زكريا خطّاب، عمان هاتف: 95349156 7 00962

نقوش على جدران قلعة اسمها كافكا

من السوربون إلى جامعة طوكيو فبيركلي بولاية كاليفورنيا الأمريكية، احتفل العالم كله عام 1983 بمرور مائة عام على ميلاد فرانز كافكا. أمة واحدة كانت غائبة، كل الغياب، عن هذا الاحتفال، هي الأمة العربية، فقد كانت تعيش انكفاء على واقع هو الأقرب إلى عالم القلق والرهبة والفزع الذي صوره كافكا. وإذا كان النقاد يجمعون على أن أقوى ما في عالم كافكا المترع بالتعاسة والرعب هو واقعية جزئيات هذا العالم لا غرابته ومفارقته للمنطق والمألوف، فإن ما يعيشه العالم العربي، عند المنعطف الرابع للقرن العشرين، ربما كان تجلياً آخر لعالم كافكا.

من هذا المنطلق، فإننا نبادر إلى طرح عدد من الملاحظات، ربما كانت الوحيدة التي كتبها قلم عربي في الذكرى المشار إليها، ومع ذلك فإنها تصب في محيط الهموم العربية بأكثر مما تنطلق نحو الاهتمام بعالم كافكا، وإن كان طموحها الجمع بين تأمل هذه الهموم ومتابعة ذاك الاهتمام.

أولاً: لا زال الكثيرون في عالمنا العربي، لا يتعرفون بالمعنى الصحيح الفارق بين الإلمام المعرفي والإحاطة العلمية. فالعلم، بأبسط المعاني، هو المعرفة وقد ارتفعت إلى درجة من اليقينية والضبط تسمح لا بالحديث عن قوانين يتواتر حدوث نتائجها كلما توافرت ظروفها الموضوعية الواضحة والصريحة والمحددة وحين نتملك ناصية مثل هذه القوانين فحسب نستطيع أن نتحدث عن إعمالها في مواجهة مواقف تحددت من حيث الزمان والمكان والطبيعة، تجاوزاً لها أو تعجيلاً بحدوثه أو تأثيراً في كيفية هذا الحدوث. وإذا حملنا هذه الحقيقة إلى عالم الدراسات الإنسانية لوجدناها لا تزال قائمة، وإن لف الضباب التخوم هوناً بين الأشياء. فإذا مضينا بها إلى رحاب الأدب، لوجدناها قائمة لا تزال، وإن كانت بأبعادها النسبية. هكذا فإننا حين نجد من يطالبنا بأن نستخدم فكر قاص عظيم مثل كافكا في صراعنا الفكري الدامي مع الصهيونية العالمية ندرك تواً ضخامة الشوط الذي يتعين علينا أن نقطعه، فإذا كان هدفنا أن نشهر ما يعطيه لنا كافكا كعرب، وهو جليل وعظيم، في وجه عدونا فإن علينا أولاً أن نعرف تراث كافكا، ثم من خلال الدراسة النقدية الدقيقة نصل بهذه المعرفة إلى درجة من الضبط تسمح لنا بإيجاد القواعد الأصولية التي تسمح لنا أولاً بتحطيم محاولات الخلط التي يطرحها العدو الصهيوني بخصوص أدب كافكا ثم إبراز إدانة المفكر والروائي العظيم للصهيونية بحسبانها

أداة جهنمية أعدت للقهر تحت هيمنة الإمبريالية، ولا بد لها يوماً بديناميتها الذاتية وبمواجهة الآخرين لها أن تدمر ذاتها.

ثانياً: إذا استقر ما تقدم فدعنا نطرح على أنفسنا سؤالاً محدداً: ما هو بالضبط الموجود بين أيدينا كعرب من تراث كافكا؟ المترجم من أعمال كافكا إلى العربية يتمثل في ترجمات على هذا القدر أو ذاك من الدقة للأعمال التالية: المحاكمة - القصير - المسخ - أميركا - وصف معركة - في مستوطنة العقاب - بنات آوى وعرب - سور الصين العظيم وبعض مراسلاته: من الواضح أن ما تمت ترجمته من أعمال كافكا إلى العربية يمكن أن يضمه مجلد متوسط الحجم. فإذا تذكرنا أن الطبعة الجديدة المنقحة لأعمال كافكا تقع في 16 مجلداً لم يتم إنجازها إلى الآن لتبين لنا مدى عمق الهوّة التي تفصل بيننا كعرب وبين العالم في الإلمام بتراث كافكا، دع جانباً توظيف هذا التراث في معركتنا مع الصهيونية العالمية. والحق أننا جميعاً لا نزال فيما يتعلق بالحضور العضوي لتراث كافكا أمام المشكلة التي أطلق عليها بعض النقاد وصف «لغز المخطوطات المراوغة» فالمعروف أن كافكا كتب مذكرة أخيرة قبل وفاته في الثالث من يوليو عام 1924 إلى صديقه ماكس برود طالبه فيها بإعدام كل مخطوطاته. وكانت الفقرة الأخيرة من المذكرة على النحو التالي:

«لكن كل كتاباتي الموجودة (سواء منشورة في الصحف أو في شكل مخطوطات أو خطابات) كل شيء دون استثناء بقدر

ما يمكن اكتشافه أو الحصول عليه بالطلب من أصحاب العناوين (التي تعرف معظمها، ينبغي أساساً ومهما حدث ألا تنسى الكراستين الموجودتين لدي...) كل هذه الأشياء دون استثناء ومن الأفضل بغير مطالعتها (لن أحول بصورة مطلقة بينك وبين فحصها، وذلك على الرغم من أنني أوثر ألا تقوم بذلك، وألا يقوم بذلك أحد على أية حال) كل هذه الأشياء دون استثناء ينبغي أن تُحرق، وأتوسل إليك أن تقوم بذلك بأسرع ما يمكن».

ما الذي تشي به هذه السطور حقاً؟ إن كل كلمة فيها تنفي أنها وصية رجل صمم على إعدام مخطوطاته. ومن حسن الحظ أن هذا هو الاستنتاج الذي وصل إليه ماكس برود، فكرس حياته لإصدار أعمال كافكا. لكن ذلك الموقف إذا كان قد حلّ جانباً من مشكلة المخطوطات المراوغة، فإنه لم يحلها بكاملها، فالمعروف أن كافكا أعدم جانباً من أوراقه بنفسه، كما يبين بوضوح في مذكراته في مارس 1912 وفي 15 أكتوبر 1921 وفي يناير 1922، وعثر ماكس برود على عشر كراسات ضخمة أُتلفت محتوياتها في المكان الذي لفظ فيه كافكا أنفاسه الأخيرة، وصادر رجال الجستابو قدراً لا يزال مجهولاً من كتاباته، ولا أحد يعلم إذا كانت هذه الكتابات قد أُعدمت أم أنها لا تزال موجودة في قبو سري أو أرشيف مجهول. من ناحية أخرى فإن ترقيم مواد الكتابات وتحريرها يمثل مشكلة ليست

بالهينة، وعلينا نحن العرب أن نشارك سائر باحثي العالم في مواجهة هذه المشكلات وأن نخرج منها بطبعة عربية منقحة، لا تزال حتى كتابة هذه الكلمات بعيدة حتى عن أن تكون حلماً نتطلع إليه.

ثالثاً: جاء في مقدمة طبعة سيكر الثمانية الصادرة بالإنكليزية لأعمال كافكا ما يلي:

«إن من اليسير على نحو يدعو للأسى أن يكتب المرء هراء حول كافكا ومحاولة الزعم بانتمائه إلى مجال قضية أو أخرى، لقد كانت عبقريته من الصراحة بحيث إنها تتحدى كافة محاولات التصنيف».

ولعل تلك هي المأساة الحقيقية لتراث كافكا، فما أوسع نطاق التيارات المتباينة والمدارس المتصارعة في إطار علم النفس وعلم النفس العلاجي والدين والفلسفة والأدب التي قالت بانتماء كافكا إلى رحابها! هكذا فإن مخططي المنطق الدعائي الصهيوني، الذي لم يتردد يوماً في اتخاذ الكذب أداة لحركته، سرعان ما بادروا بالقول بأن كافكا ليس إلا كاتباً صهيونياً ومتحدثاً آخر باسم الصهيونية العالمية. ومن المؤسف حقاً أن عدداً من النقاد العرب قد ابتلعوا هذا الطعم، فأطلقوا التهم جزافاً على كافكا، ووضعوه كمفكر وأديب في دائرة الشك. هنا يتعين علينا، في معرض التصدي لهذا الطرح وتفنيده، أن نشير إلى النقاط التالية:

أ- إن العملين اللذين يشير إليهما بعض النقاد العرب في مجال وضع كافكا في دائرة الشك من حيث تبنيه للمقولات الصهيونية، وهما على وجه التحديد رواية «في مستوطنة العقاب» والقصة القصيرة الموسومة «بنات آوى وعرب»[1]، يوضحان بما لا يدع مجالاً للشك لبراءة كافكا من مثل هذه التهمة العجيبة فحسب وإنما كونه من أعنف المهاجمين للصهيونية فكراً وحركة. ففي الرواية نراه يصور الصهيونية آلة جهنمية، همها الأول سحق الأبرياء روحاً وجسداً، ثم نراه يكشف مدى اهتراء هذه الآلة من الداخل وحتمية تحطمها من خلال دينامياتها الداخلية وقصورها الذاتي، وهو لا يتردد في تعرية العلاقة الوثيقة بين الصهيونية والإمبريالية، ويمضي إلى حد القول بأنها علاقة توالدية لا تردد الإمبريالية معها في اللجوء إلى السلاح لحماية الصهيونية. أما في القصة القصيرة، فنرى موقف كافكا من العرب موقفاً يخلو من الأحكام القيمية الشائعة في عصره، بل هو لا يتردد في الإشادة بشجاعة العربي، وبالمقابل يدين القائلين بالصهيونية في إهاب بنات آوى فيدمغ الطابع الدموي لتحركها ويشدد على أن ولوغها في الدم سيضعها في دائرة عنف لا فكاك لها منها مع العرب عبر الأجيال المتتالية.

---

(1) راجع الدراسة التي قدمنا بها للكتاب الذي يحمل عنوان العملين معاً من ترجمتنا، راجع أيضاً ترجمتنا لـ «في مستوطنة العقاب» المنشورة في العدد 77 من مجلة «الدوحة» القطرية الصادر في مايو 1982 (هـ.م).

ب- إن النقاد العرب الذين وضعوا كافكا في دائرة الشك صدروا في أحكامهم عن دراسات عاجلة تفتقر إلى أدنى مقومات الحس النقدي لحياة وأعمال الأديب التشيكي الكبير وإلى انجراف غير موضوعي في تفسير منظومة الرموز الممتدة عبر أعماله. حقاً إن كافكا كان من أصل يهودي ينتمي إلى عائلة تحترف تجارة العاديات في جهد دائر لتكديس الثروة، لكن حياة الرجل وكتاباته تشي بتناقضه مع واقعه الطبقي وتمرده على الإطار الفكري الذي قدر له أن يطل على الدنيا في رحابه. وأعماله كلها يمكن بمعنى ما تفسيرها باعتبارها صرخة احتجاج دامغة في وجه النظام الرأسمالي الطالع إلى الأوج وقتذاك، مفجِّراً آفاق الرعب والفزع والقلق التي أجاد كافكا التعبير عنها.

ج- رغم تعدد المحاولات التي بذلت لتفسير أعمال كافكا في إطار رؤى ميتافيزيقية معينة والمضي بها إلى متاهات متعددة المفاهيم، فإن هذه الأعمال تقود الناقد الموضوعي بديناميتها الذاتية إلى تلمس تضاريس نقد اجتماعي صارم، تبدو لنا أوضح سماته في رواية «القصر»، حيث التناقض الصارم بين سكان أبراج القصر وعامة الناس الذين يسكنون القرية الغارقة في البؤس والضياع.

د- لقد تصدى جيش لجب من النقاد من مختلف التيارات والاتجاهات للوقوف في وجه عبقرية كافكا، وإعمال كافة الأسلحة في محاولة لتحطيمها، إلى الحد الذي لم يتردد معه

المحرر الأدبي لصحيفة «ساترداي ريفيو» على سبيل المثال في وصف رواية القصر بأنها «هراء لا معنى له». ومن العجيب حقاً أن يجتمع كل من الشيوعيين الفرنسيين والمسيحيين الأمريكيين على مهاجمة أعماله. ورغم أنه يمكن القول بأن تلك هي سمة كل عبقرية حقيقية حيث إنها هي القادرة على إثارة كل هذا الخلاف بشنها، إلا أن علينا أن نتذكر أنه في عام 1963 انعقد في قصر ليسبليس بتشيكوسلوفاكيا مؤتمر لدراسة وتقويم عمال كافكا بدعوة من أكاديمية العلوم التشيكية، وخرج الدارسون في هذا التجمع بالنتيجة التالية: «إن أدب كافكا كان أدباً طليعياً، وكان هو طليعة للحرية على طريقته الضاحكة الباكية»، ولا يتردد جورج لوكاتش في أن يقول عنه: «إنه يعد حقاً واحداً من أعظم الكُتّاب على وجه الإطلاق، إذا ما تأملنا حقيقة أن عدداً محدوداً للغاية من الكتاب قد تصاعدوا إلى سمت مهارته في الاستحضار المفعم بالحياة لجدة العالم التي تفرض ذاتها، ولم تكن الحاجة ماسة إلى نوعية الإنجاز الذي أبدعه كافكا على نحو ما هي عليه اليوم، حيث يسقط عدد هائل من الكُتّاب في منزلق التجريب. ولا يعود تأثير ما أبدعه كافكا فحسب إلى إخلاصه العميق، وهو سمة نادرة بما فيه الكفاية في عصرنا، وإنما كذلك إلى بساطة العالم الذي شاد صرحه، تلك البساطة التي توافقت مع إخلاصه». أما الاشتراكي النمساوي آرنست فيشر فيقول عنه إنه يميل إلى

تجميد اللحظة التاريخية لتصبح لحظة دائمة، ولكن استطراده الجدلي من كل إجابة إلى سؤال جديد، ومن كل قضية إلى نقيضها، كان يحطم هذا التجميد على الدوام.

رابعاً: إذا كان لا بد من كلمة موجزة حول رواية «تحريات كلب»، التي سقنا هذه الملاحظات في معرض التقديم لها، فظلمناها بانشغالنا في إلقاء مزيد من الضوء على جوانب عالم كافكا، الذي لم ينل منا كعرب ما يستحقه من دراسة تمحيص، فإننا ينبغي أن نشير إلى أن هناك أكثر من اتجاه واحد في فهم وتحليل وتفسير هذه الرواية، ونحن نقف إلى جوار الطرح الذي يقول بأن «تحريات كلب» رواية يمكن قراءتها على أحد أصعدتها بحسبانها ترجمة ذاتية رمزية لكافكا. وهذا يعيدنا مباشرة إلى تفاصيل حياته، فقد وُلد في مدينة براغ في الثالث من يوليو 1883 ابناً لتاجر عاديات طموح كما سبق لنا القول، وكانت عائلته تنتمي إلى الأقلية الناطقة بالألمانية في المدينة، ومن هنا التحق بالمدرسة الابتدائية الألمانية ثم الثانوية الألمانية أيضاً خلال الأعوام الممتدة من 1893 إلى 1901، ورغم ميله الحاد إلى دراسة الفلسفة والتبحر فيها، فقد أُرغم على دراسة القانون في جامعة كارل فرديناند، التي حصل منها على درجة الدكتوراه في 1906، وفي ذلك العام بعينه تقدم بقصة قصيرة بعنوان «السماء في شوارع ضيقة» لمسابقة أجرتها صحيفة «زيت» الصادرة في فيينا. ورغم أنه تعرف في عام 1902 على ماكس

برود الذي قدمه للدوائر الأدبية في براغ إلا أن حياته الأدبية لم تبدأ عملياً في التشكل إلا في عام 1909 حيث قبلت إحدى صحف براغ نشر قصة قصيرة له، وقرأ على مسامع برود الفصول الأولى من رواية لم يُقدَّر له أن ينهيها بعنوان «استعدادات الزفاف في الريف». وفي العام التالي بدأ تدوين مذكراته في الوقت الذي شرع فيه بالاهتمام بالمسرح، وتوثقت عرى صداقته مع الممثل إسحاق لوي، وانعكس هذا الارتباط بوضوح على صفحات «تحريات كلب».

في التحريات، كما في المسخ والمستوطنة والمحاكمة وكل ما كتب كافكا على وجه التقريب، سنواجه ذلك القلق المحتدم وتلك الرهبة المحلقة، فلا هي تتبدد ولا هي تنقض لتضع نهاية لعالم مجبول من فزع. انظر إلى تجربة كافكا الشاب مع عالم المسرح وهي تنعكس صداماً هائلاً حد التمزق حيث تنقض الموسيقى على الجرو الصغير في التحريات فتوشك أن تقضي عليه، ثم طالع تلك السخرية الباطشة التي يتناول بها كافكا شريحة من الفنانين بلغت من العجز والعمق في الهامشية والبُعد عن القدرة على التأثير الحقيقي إلى الحد الذي لم يتردد معه كافكا في تشبيه هذه الشريحة بالكلاب المحلقة التي فقدت حتى تلك الجدارة البديهية والأولية التي مارسها رجل الكهف بالقدرة على إنتاج المزيد من نوعه! وببساطة بالغة، رأينا كيف أشاد بها لوكاتش، يحصر كافكا الجوانب العضوية لحياة البشر ممثلة في

الطعام والجوانب الروحية ممثلة في الموسيقى، ويمضي بنا القاص التشيكي المبدع عبر تجاربه في استحضار الجانبين، فنوشك أن نحلق معه في سكون الغابة، حيث مارس الصوم ليفارق السغب!

وبعد، فقد كتب كافكا في مذكراته عن الثالث عشر من نوفمبر 1913 في فترة أعقبت بسنوات قلائل تأليف التحريات يقول إنه لا يجد السعادة إلا إذا كان بوسعه أن يرتقي بالعالم إلى النقاء والحق وما لا يقبل التغيير. وكل ما نرجوه أن نكون بترجمة التحريات قد قطعنا شوطاً في الطريق الذي أشار إليه كافكا.

* * *

لشد ما تغيرت حياتي! رغم ذلك ما أعمق الجمود الذي رانَ على قرارتها! حينما قلب الأمر في ذهني، وأستعيد الوقت الذي كنت لا أزال فيه عضواً في فصيلة الكلبيات، أشارك في كل اهتماماتها، كلباً بين الكلاب، أجد لدى تفحص الأمر عن كثب أنني منذ البداية ذاتها كنت أستشعر بعض التعارض، شيئاً من انعدام التوافق، يسبب شعوراً واهناً بعدم الارتياح، لا تفلح حتماً أقصى الوظائف العامة لياقة في إزالته، أكثر من هذا أنه في بعض الأحيان، لا، ليس في بعض الأحيان، وإنما غالباً، كان مظهر كلب من رفاقي فحسب كنت مولعاً به، مظهره فقط، كما لو كنت قد رأيته لتوي للمرة الأولى، يفعمني بحرج وخوف لا حيلة لي فيهما، بل يملأني يأساً. حاولت تهدئة خشيتي ما وسعني، وساعدني الأصدقاء الذين بحت لهم بمخاوفي، فأقبلت أوقات أكثر سلاماً، أوقات من الصحيح أنها لم تكن تفتقر إلى هذه المفاجآت المذهلة، ولكن جرى فيها تقلبها بمزيد من التفلسف، واندرجت في حياتي بالمزيد منه، الأمر الذي ولد

ضرباً من الكآبة والبلادة، ربما، لكنه رغم ذلك سمح لي بأن أمضي في الحياة كلباً بارداً، متحفظاً، خجولاً، متدبراً للأمور ربما، وإنما على أي الحالات كلباً عادياً بما فيه الكفاية. ترى كيف كان يمكن حقاً دون فترات النقاهة تلك أن أبلغ العمر الذي أتمتع به الآن؟ كيف كان يمكن أن أشق طريقي عبر الصرامة التي كنت أرمق بها الأحوال التي عمرت بها يفاعتي وأن أتحمل ألوان الرعب التي تمجها الكهولة؟ كيف كان يمكن أن أصل إلى الموضع الذي أغدو عنده قادراً على إزاحة تبعات موقعي جلي التعاسة أو إذا شئنا التعبير باعتدال لقلنا موقعي غير الموغل في السعادة وأتعايش تماماً على وجه التقريب مع هذه التبعات؟ وحيداً، نائياً، دونما شيء يشغلني عدا تحرياتي الصغيرة البائسة، ومع ذلك وبالنسبة لي، التي لا غنى عنها، ذلك هو النحو الذي تمضي عليه حياتي. مع ذلك فإنني في غمار عزلتي النائية لم يغب أهلي عن ناظري، وغالباً ما تشق الأنباء طريقها متوغلة نحوي، وبين الحين والآخر أدع الأخبار تتسرب لهم عني. يعاملني الآخرون بإجلال، لكنهم لا يفقهون طريقة حياتي. مع ذلك فإنهم لا يكنون لي ضغينة، بل إن الكلاب الفتية التي أمر بها عن بُعد في بعض الأحيان، الجيل الجديد الذي لا أحتفظ إلا بذكرى شاحبة لطفولته، لا تنكر حقي في تحية ملؤها التوقير.

ذلك أنه لا ينبغي أن يفترض، رغم غرابة أطواري بالغة الجلاء، أنني مستثنى بأي حال من القوانين التي تحكم النوع

الذي أنتمي إليه. حقاً حينما أتأمل الأمر، ولي من الوقت وخلو البال والقدرة ما يكفي لذلك، فإنني أدرك أن عالم الكلاب هو مؤسسة رائعة من كل الجوانب. وبغض النظر عنا نحن معشر الكلاب، فثمة في العالم أنواع عديدة من المخلوقات، التعسة، الضئيلة، البليدة، التي لا تتحدث لغة، وإنما تتبادل صيحات آلية، والكثيرون نحن الكلاب يدرسونها، بعد إطلاق أسماء عليها، ويحاولون مساعدتها، تعليمها، الارتقاء بها، وما إلى ذلك. ومن جانبي فإني لا أبالي بها إطلاقاً، اللهم إلا حين تحاول إزعاجي، فأنا أخلط بينها، وأتجاهلها. لكن ثمة شيئاً هو من الوضوح بحيث لم يغب عني هو قلة ميلهم، بالمقارنة بنا نحن معشر الكلاب، إلى البقاء معاً، فما أشد صمتهم وتجافيهم، وما أعجب الكراهية التي يمر بها أحدهم على الآخر، وما أشد وضاعة المصالح التي تكفي لربطهم معاً في اتحاد صغير شرس وما أكثر ما تثير هذه المصالح ذاتها الكراهية والصراع! تدبر أمرنا نحن الكلاب بالمقابل! بوسع المرء أن يقول، دون أن يخشى الوقوع في الخطأ إننا جميعاً نحيا معاً في كومة بالمعنى الحرفي للكلمة جميعنا، وذلك على الرغم من اختلافنا أحدنا عن الآخر بسبب التطورات العميقة والتي لا حصر لها التي طرأت على مر الزمان، جميعاً في كومة واحدة! يجتذب أحدنا نحو الآخر. ولا شيء يمكن أن يمنعنا من إرضاء الغريزة الجماعية، وترجع قوانيننا ومؤسساتنا جميعها، القلة التي لا زلت أذكرها

والكثرة التي نسيتها، إلى هذا الحنين للقداسة السامية التي نحن بها جديرون، والارتياح الدافئ لكوننا معاً. ولكن تأمل الآن الجانب الآخر للصورة! ما من مخلوقات أخرى، بقدر ما أعلم، تحيا في مثل هذا التشتت الهائل مثلنا نحن الكلاب، ما من مخلوقات أخرى لها مثل هذه الضروب العديدة للتمييز بين الطبقات والأنواع والأعمال. وهي ضروب من التعدد بحيث يستحيل استعراضها بنظرة واحدة، نحن الذين تتمثل رغبتنا الوحيدة في أن نبقى معاً، والتي نفلح في تحقيقها مراراً وتكراراً في لحظات متتابعة على الرغم من كل شيء نجبر قبل الآخرين جميعاً على أن نبقى منفصلين أحدنا عن الآخر من خلال نداءات باطنية غريبة، تبدو غير مفهومة غالباً حتى لجيراننا من الكلاب، الذين يتشبثون بقوانين لا تنتمي إلى عالم الكلاب، وإنما هي بالفعل موجهة ضده. لكم هي محيرة هذه الأسئلة! أسئلة يؤثر المرء ألا يمسها... وإني لأتفهم وجهة النظر تلك كذلك، لربما على نحو يفوق تفهمي لوجهة نظري، ومع ذلك فهي أسئلة استسلمت لها تماماً. لم لا أفعل ما يفعله الآخرون، فأحيا في تناسق مع أهلي، وأتقبل في صمت ما غير ذلك التناسق، متجاهلاً إياه باعتباره خطأً صغيراً في الحساب الهائل، واضعاً في ذهني على الدوام الأمور التي تضمنا في سعادة معاً لا تلك التي تدفعنا مراراً وتكراراً وإن يكن من خلال القوة المحصن بعيداً عن دائرتنا الاجتماعية؟

بوسعي استعادة ذكرى حادثة وقعت لي في يفاعتي. كنت في ذلك الوقت في إحدى تلك الحالات المباركة وغير القابلة للتفسير من الصفاء، التي من المحتم أن الجميع قد عرفوها خلال الطفولة. كنت لا أزال جرواً، وكل شيء يبعث السرور فيّ، كل شيء يثير اهتمامي. كنت أعتقد أن أموراً عظيمة تقع حولي، أتصدى لقيادتها، ويتعين عليّ التعبير عنها. أمور من المحتم أنها ستلقى جانباً على نحو تعس، إن لم أسارع بالعدو من أجلها، وإذا لم أهز ذيلي لها: ... أوهام صبيانية تتبدد حينما تحل سنوات أكثر نضجاً. ولكن في ذلك الوقت كانت قوتها هائلة، وقعت تماماً في إسار سحرها ووقتها حدث شيء بالفعل، شيء بالغ الغرابة حتى إنه بدا وكأنه يبرر توقعاتي الوحشية. لم يكن في ذاته أمراً فذاً، فقد سبق أن رأيت أموراً عديدة كهذه، بل وأشياء أكثر تميزاً كذلك، كانت كافية منذ ذلك الوقت، لكن الأمر في حينها عصف بي بقوة الانطباع الأول، أحد تلك الانطباعات التي لا يمكن محوها والتي تؤثر في جانب يعتد به من سلوك المرء فيما بعد. باختصار قابلت مجموعة صغيرة من الكلاب، أو بالأحرى لم أقابلهم، وإنما ظهروا أمامي كنت قبلها أعدو في الظلام لبعض الوقت، ممتلئاً بهاجس وقوع أمور هائلة... وهو هاجس قد يكون مضللاً، لأنني أستشعره دائماً. كنت قد عدوت في الظلام لوقت طويل، علواً وسفلاً، غاضاً ناظري، وصاماً مسامعي عن كل شيء، لا تقودني إلا رغبة غامضة.

الآن فجأة توقفت شاعراً بأني في المكان المناسب. تطلعت، فأدركت أنه يوم ساطع الشمس ذاك الذي أطل، وإن كان غائماً قليلاً، وانتشر في كل مكان مزيج متداخل من أكثر الروائح قدرة على الاستثارة. حييت الصباح بنباح لا يخالجه اليقين. عندها، وكأنما استحضرتهم بذهني، ومن مكان مظلم ما، وبصحبة أصوات مفزعة لم يسبق لي سماعها قط، خطا سبعة كلاب إلى النور. لو أني لم أرَ بوضوح أنهم كلاب، وأنهم جلبوا بأنفسهم الصوت معهم -على الرغم من أني لم أستطع إدراك كيفية إحداثهم له- لعدوت بعيداً في الحال. كنت في ذلك الوقت لا أزال جاهلاً كل شيء عن الموهبة الخاصة بالموسيقى التي يحظى بها الجنس الكلابي وحده. ومن الطبيعي أن الأمر قد غاب عن قدراتي على الملاحظة، التي كانت في طور النمو لا تزال، فعلى الرغم من أن الموسيقى قد لفتتني باعتبارها عنصراً طبيعياً تماماً ولا غنى عنه في الوجود منذ كنت رضيعاً، عنصراً ما من شيء يرغمني على تمييزه عن باقي عناصر الوجود، فإن أبوي لم يلفتا انتباهي إليه إلا من خلال تلميحات من النوعية التي تناسب الفهم الصبياني، من هنا بدا لي هؤلاء الفنانون الموسيقيون مذهلين ثم مدمرين حقاً بالنسبة لي. لم يتحدثوا. لم يغنوا. وإنما ظلوا جميعاً صامتين، صامتين بحزم تقريباً، لكنهم استحضروا الموسيقى من الخواء. كل شيء كان يضج بالموسيقى، رفع قوائمهم وخفضها، لفتات معينة للرأس، عدوهم، وقوفهم

جامدين بلا حراك، الأماكن التي احتلوها كل منهم بالنسبة للآخر، الأنماط المتساوقة التي راحوا يفرزونها من خلال وضع أحدهم قائمتيه الأماميتين على ظهر الآخر وحذو الآخرين حذوه إلى أن يحمل الأول وقر الستة الآخرين، أو الجثوم على الأرض ثم الزحف من خلال انطلاقات معقدة متناسقة دون أن يأتي أحدهم حركة ليست في موضعها، حتى ولا من قبل الكلب الأخير، وإن بدا غير واثق من نفسه قليلاً، ولم يرتبط بالآخرين على الفور، وتردد في بعض الأحيان عند دوي صوت الطبل، لكنه كان مع ذلك غير واثق من نفسه بالمقارنة فحسب بالثقة الرائعة التي يبديها الآخرون، وحتى لو أنه كان أكثر إيغالاً في ذلك بكثير من الافتقار للثقة، بل غير واثق من نفسه تماماً حقاً لما كان بمقدوره أن يضير الأداء، فقد كان الآخرون، وهم المتمكنون جميعاً من فنهم، يحافظون على الإيقاع في ثبات بالغ. لكنه من قبيل التجاوز أن أقول بأني كنت أراهم بوضوح، بل والقول بأني كنت أراهم فعلاً. لقد لاحوا مقبلين من مكان ما. حييتهم في أعماقي باعتبارهم كلاباً، ورغم أن الأصوات التي أحاطت بهم قد أثارت اضطرابي بعمق، إلا أنهم كانوا جميعاً كلاباً مثلي ومثلك. وقد نظرت إليهم بقوة العادة باعتبارهم كلاباً تصادف أن قابلتهم في طريقي. شعرت بالرغبة في الاقتراب منهم ومبادلتهم التحايا. كانوا قريبين للغاية كذلك، كلاباً أكبر مني سناً بالقطع، ولا تنتمي إلى النوع ذي الشعر

الصوفي الطويل الذي أنتمي إليه، ولكنهم ليسوا على النحو نفسه من الغرابة في الحجم أو الشكل، لاحوا مألوفين حتماً لي، ذلك أني سبق أن رأيت بالفعل العديد من الكلاب التي تماثلهم أو تنتمي لنوعهم. ولكن فيما كنت غارقاً في هذه التأملات طغت الموسيقى، بل وانتزعت أنفاسي بالمعنى الحرفي للكلمة واكتسحتني ملقية بي بعيداً عن تلك الكلاب الصغيرة الحقيقية ضد إرادتي تماماً فيما كنت أعوي كما لو كنت أتعرض لإيلام من نوع ما. ما كان بوسع ذهني أن يهتم بشيء إلا بهبة الموسيقى تلك، التي بدت وكأنها تنداح من كل الجوانب، من الأعالي، من الأعماق، من كل صوب، ممسكة بخناق السامع وسط الساحة، ومتغلبة عليه، ساحقة إياه، وناثرة فوق جسده الذي يوشك على مفارقة الوعي أفانين من الأصوات الاحتفالية بالغة القرب منه حتى تبدو بالغة البعد وغير مسموعة على وجه التقريب. ثم هلت فترة راحة، حيث يضعف المرء بالفعل، يغدو خائراً واهماً حتى ما يعود بوسعه الاستمرار في الإصغاء. هلت فترة راحة. رأيت مجدداً الكلاب السبعة الصغيرة تواصل انطلاقاتها، وتقوم بقفزاتها. تُقت للصياح بهم على الرغم من نفورهم، أن أتوسل إليهم لينيروا بصيرتي، أن أسألهم عما يأتونه -كنت جرواً واعتقدت أن بوسعي أن أسأل أياً كان عن أي شيء- ولكن ما أن شرعت، ما أن شعرت بأني على علاقة طيبة وكلابية مألوفة بالسبعة، حتى دوت الموسيقى مجدداً، فأذهلتني، ودارت بي في

دواماتها، كما لو أنني كنت واحداً من الموسيقيين، بدلاً من أن أكون ضحيتهم الوحيدة. ألقت بي هنا وهناك، دون مبالاة بالمدى الذي ذهبت إليه في استجداء الرحمة، وأنقذتني أخيراً من عنفها بدفعي إلى متاهة من الحواجز الخشبية كانت تحيط بالمكان، وإن لم ألحظها قبلاً، والتي أمسكت الآن بي في حزم، وأبقت رأسي محنياً إلى الأرض. ورغم أن الموسيقى كانت لا تزال تدوي في الخواء خلفي، إلا أنها أتاحت لي القليل من الوقت لالتقاط أنفاسي. عليّ أن أقر بأني لم أذهل لتمكن الكلاب السبعة من فنهم، وهو تمكن غير مفهوم بالنسبة لي، ويتجاوز تماماً وبشكل قاطع قدراتي، بقدر ما دهشت لشجاعتهم في مواجهة الموسيقى التي صنعوها بهذا السفور وقوتهم في احتمالها بهدوء ودون أن ينهاروا. لكني الآن ومن مخبأي ولدى تفحص الأمر عن كثب أدركت أن التوتر البالغ لا الهدوء هو الذي يميز أداءهم. كانت هذه الأطراف التي تبدو بالغة اليقين في أداء حركاتها ترتجف مع كل خطوة بانخفاض دائم مفعم بالخشية كما لو كانت الكلاب وقد صلّبها اليأس تواصل التحديق أحدها في الآخر، تتدلى ألسنتها في إعياء خارج فكاكها حينما يتراخى التوتر للحظة. لا يمكن أن يكون الخوف من الفشل هو الذي يعذبها بهذا العمق، فالكلاب التي تقدم وتحقق مثل هذه الأشياء لا حاجة بها إلى أن تخاف من ذلك. إذن لماذا هم خائفون؟ من الذي أجبرهم إذن على إتيان ما يقومون به؟ لم

يعد بمقدوري الاستمرار في كبح جماح نفسي، خاصة أنهم لاحوا الآن، وعلى نحو عصي الإدراك في حاجة إلى يد العون. هكذا، وعبر زخم الموسيقى، صحت عالياً ومتحدياً بأسئلتي. لكنهم - أمر لا يصدق! أمر لا يصدق! لم يردوا أبداً. تصرفوا كما لو كنت غير موجود. والكلاب التي لا ترد على تحية كلاب أخرى ترتكب من الإساءة إلى الأخلاق الحميدة ما يتساوى في عدم اغتفاره أدنى الكلاب وعظمها. أتراهم ليسوا كلاباً على الإطلاق؟ ولكن كيف يمكن ألا يكونوا كلاباً؟ ألم أستطيع بالفعل لدى الإصغاء عن كثب سماع الصيحات الخافتة التي يشجعون بها بعضهم البعض، ويجذبون الانتباه إلى الصعوبات، ويحذرون أحدهم الآخر من الأخطاء؟ ألم أتمكن من رؤية الكلب الأصغر الذي وجهت إليه غالبية هذه الصيحات وهو يختلس النظر إليّ كما لو كان يتوق للرد لكنه يتراجع لأن ذلك لم يكن مسموحاً به؟ ولكن لِمَ لا يسمح بذلك؟ لماذا لا يسمح في هذه الحالة بالشيء ذاته الذي تقتضيه قوانيننا دونما شروط؟ أعاني الغضب إزاء هذه الفكرة، فأوشكت على نسيان أمر الموسيقى. كانت هذه الكلاب تنتهك حرمة القانون. ربما كانوا من كبار السحرة، لكن القانون ينطبق عليهم بدورهم. كنت أعرف ذلك تماماً على الرغم من أنني كنت جرواً صغيراً. بعد أن أدركت ذلك، لاحظت شيئاً آخر، لا بد أن لديهم أسباباً وجيهة تحدوهم لالتزام الصمت. لنفترض أنهم ظلوا صامتين

بسبب شعورهم بالخجل! وإلا فكيف يتدبرون أمرهم؟ كنت بسبب كل هذه الموسيقى قد عجزت عن تبين الأمر، لكنهم كانوا قد خلعوا كل عذار. كانت تلك المخلوقات التعسة تأتي الأمر الذي بعد الأكثر فحشاً والأشد إثارة للسخرية في رأينا، كانوا يسيرون على قوائمهم الخلفية. ألا تباً لهم! كانوا يعرضون للعيان عريهم، وكأنهم يستعرضون في وقاحة ذلك العري، ويأتون ذلك كما لو كان عملاً جديراً بالتقدير والمكافأة. كانوا حينما يذعنون لغرائزهم الأرقى للحظة ويتصادف أن يدعو قوائمهم الأمامية تهوي يشعرون بالفزع للتو وكأنما ارتكبوا خطأ. وكأنما الطبيعة عثرة، فيسارعون برفع قوائمهم الأمامية مجدداً، وتلوح أعينهم وكأنها تستجدي الغفران لتوقفهم للحظة عن ذلك الشيء البغيض الذي يأتونه. أترى كان العالم واقفاً على رأسه؟ أين عساي أكون؟ ما الذي كان يمكن أن يقع؟ إذا ما تعلق الأمر بي فإني ما عدت أجرؤ الآن على التردد. انتزعت نفسي من اشتباك القوائم الخشبية، قفزت إلى العراء، اندفعت نحو الكلاب... أنا المتعلم الأحدث سناً ينبغي أن أكون المعلم الآن، ينبغي أن أدعهم يدركون ما الذي يأتونه، يتعين أن أحول دون ارتكابهم المزيد من الخطايا، وكلاب مكتهلة أيضاً! كلاب مكتهلة أيضاً! هكذا رحت أحدث نفسي. لكني لم أكد أتحرر، وعلى بُعد قفزة أو قفزتين من الكلاب حتى ألقت الموسيقى حبال جبروتها عليّ. لربما أفلحت في غمار عنادي في احتمالها،

فقد عركتها الآن وخبرتها لولا أنه في قلب زخمها البهي الذي كان مثيراً للفزع، وإن كان من الممكن قهره، اندلعت نغمة واضحة نجلاء، مستمرة. أقبلت دونما اهتزاز من أبعد الآماد. ربما كانت اللحن الحقيقي في قلب الموسيقى، فأجبرتني على أن أجثو. أوه، أوشكت الموسيقى التي تحدثها هذه الكلاب على إثارة جنوني! لم أستطع التحرك خطوة واحدة. ما عدت أرغب في أن ألقي عليهم محاضرة. بوسعهم أن يمضوا فيرفعوا قوائمهم الأمامية ما طابَ لهم ويرتكبوا الخطيئة، ويغروا الآخرين بارتكاب خطيئة النظر إليهم في صمت. كنت جرواً صغيراً، فمن ذا الذي يطلب مني أداء مثل هذه المهمة العسيرة؟ جعلت من نفسي مخلوقاً أهون شأناً مما كنت. جعلت أشكو. لو أن الكلاب سألتني الآن عن رأيي في أدائها، لما كانت لدي كلمة واحدة أقولها في معرض الاعتراض. أضف إلى ذلك أنه لم ينقض وقت طويل قبل أن تختفي الكلاب بكل موسيقاها وتألقها في رحاب الظلمة التي انبعثت منها!

لا تتضمن هذه الفترة، كما سبق لي القول، شيئاً جديراً بالاكتراث، فعبر مسار حياة طويلة يصادف المرء كل ضروب الأشياء التي قد تبدو أشد إثارة للدهشة، إذا ما انتزعت من سياقها ونظر إليها بعين طفل. فضلاً عن هذا فإن بوسع المرء بالطبع، وكما يقول المثل الشعبي اللاذع: أن يقول بأنه «أخطأ حتى ما عاد يعرف يمينه من شماله» وكذلك خلط بين كل ما

يتعلق بالأمر، عندئذ سيظهر أن تلك لا تعدو أن تكون حالة تجمع فيها سبعة من الموسيقيين ليبدعوا فنهم في هدأة الصباح، وأن جرواً بالغ الصغر ضل طريقه إلى هذا المكان، فغدا متطفلاً ثقيلاً، حاولوا طرده بعيداً بموسيقى مفزعة بصفة خاصة وبعزف جليل، غير أنهم لسوء الحظ لم يحرزوا نجاحاً في هذا، فقد أمطرهم بأسئلته، فهل كان يتوقع منهم، وهم الذين ضايقهم بالفعل مجرد وجود هذا الغريب أن يهتموا بتدخلاته المبددة للانتباه كذلك ويجعلوها تزداد تفاقماً بالاستجابة لها؟ وحتى إذا كان القانون يأمرنا بالإجابة على الجميع، فهل هذا الكلب الصغير الضال شخص جدير بالاهتمام حقاً؟ بل وربما لم يفهموه فمن المحتمل أنه صرخ نابحاً بأسئلته على نحو لا يمكن تبينه، أو ربما فهموه، وبضبط عظيم للنفس ردوا على أسئلته، لكنه، وهو الجرو الصغير الذي لم يتعود الموسيقى، لم يستطع تمييز الرد من الموسيقى. أما فيما يتعلق بالسير على القوائم الخلفية فربما كانوا وحدهم من دون سائر الكلاب يستخدمون هذه القوائم فقط في السير، وإذا كان ذلك خطيئة، طيب، ليكن! لكنهم كانوا وحدهم، سبعة أصدقاء معاً، صحة حميمة بين جدرانها الأربعة، إذا جاز لنا قول ذلك، منفردين معاً، ففي النهاية ليس أصدقاء المرء بالجمهور، وحيثما لا يوجد جمهور فمن المحقق أن كلباً ضالاً فضولياً ليس بوسعه أن يشكل جمهوراً. ولكن بفرض أن ذلك كان ممكناً، أليس الأمر يبدو

وكأن شيئاً لم يقع على الإطلاق؟ ليس الأمر على هذا النحو تماماً: لكنه قريب من ذلك، وينبغي على الآباء ألا يتركوا أبناءهم ينطلقون متحررين، ومن الأفضل لهم أن يعلموهم كيف يمسكون ألسنتهم ويوقرون الكبار.

إذا تم الإقرار بهذا كله، فإنه ينفض أيدينا من القضية برمتها. لكن العديد من الأمور التي ينفض الكبار أيديهم منها لم تسو بعد في أذهان الصغار. اندفعت هنا وهناك. حكيت قصتي. طرحت أسئلة. وجهت اتهامات. أجريت تحريات. حاولت استدراج الآخرين إلى البقعة التي جرى فيها هذا كله. احترقت توقاً إلى أن أوضح للجميع الموضع الذي كنت واقفاً فيه، وأين وقف الكلاب السبعة، وأين وكيف رقصوا وأصدروا موسيقاهم. ولو أن أحداً جاء معي بدلاً من طردي والسخرية مني لكان من المحتمل أن أضحي ببراءتين ولجربت قدراتي في الوقوف على قائمتي الخلفيتين لأعيد تصوير المشهد بوضوح. الآن علينا القول بأن الأطفال يلامون على كل ما يأتونه، لكنهم في النهاية يحظون بغفران كل ما جنوه. وقد احتفظت بملكاتي الصبيانية، ورغم ذلك طال بي العمر حتى غدوت كلباً عجوزاً. طيب، واصلت على نحو ما كنت في ذلك الوقت دونها توقف مناقشة الحادثة سالفة الذكر، التي يتعين عليّ الاعتراف بأني أعلق عليها أهمية أقل بكثير، محللاً إياها إلى عناصرها التي شكلت قوامها، مناقشاً مضمونها مع من يصغون إليّ، بغض النظر عمن أجد

نفسي وسطهم، مخصصاً كل وقتي للمشكلة التي وجدتها، شأن الآخرين جميعاً، مضجرة. لكني -وهذا هو الفارق- لهذا السبب ذاته عقدت العزم على متابعتها دونما كلل حتى أحلها، كي أصبح حراً في استعادة الحياة اليومية، العادية، الهادئة، والسعيدة. لهذا على وجه الدقة شقيت كدحاً -وإن يكن بوسائل أقل صبيانية وإن كان الفارق ليس كبيراً للغاية- منذ السنوات التي أعقبت ذلك الحادث، ولا زلت أواصل الشقاء كدحاً اليوم.

لكن الأمر بدأ بالحفل الموسيقي، ولست ألقي اللوم على الحفل، فقد كان ميلي الفطري هو الذي دفعني قدماً، ويقيناً كان سينتهز فرصة أخرى للتحرك لو لم يقم ذلك الحفل أبداً. مع ذلك فإن حدوثه مبكراً على هذا النحو جعلني أشعر بالأسى لنفسي، فقد سلبني جانباً يعتد به من طفولتي، من الحياة المباركة للجرو، التي يستطيع الكثيرون إطالتها لأعوام، والتي لم تدم في حالتي إلا شهوراً قليلة قصيرة. ليكن ثمة أمور أكثر أهمية من الطفولة، وربما يقف بإزائي احتمال تحقيق سعادة أكثر طفولية عبر العمل الشاق في كهولتي تفوق ما لدى أي طفل من قوة الاحتمال، وهي القوة التي سأمتلك ناصيتها عندئذ.

بدأت استفساراتي بأبسط الأمور، لم يكن ثمة فقر في المادة، بل إن الوفرة الهائلة هي التي ألقت بي لسوء الحظ إلى اليأس في ساعاتي الأكثر قتامة. شرعت في الاستفسار عن إجابة للسؤال التالي: ما الذي يتغذى به الجنس الكلابي؟ ذلك، كما

ترى ليس بالطبع بالسؤال البسيط، فقد شغلنا منذ فجر الزمان. وهو الموضوع الرئيسي لتفكيرنا. وقد نشرت ملاحظات ومقالات ووجهات نظر لا حصر لها حوله، وتضخم فتحول إلى مجال معرفي يتجاوز بنطاقه الهائل لا إدراك المثقف الفرد فحسب، وإنما كذلك إدراك مثقفينا مجتمعين، وغدا عبئاً لا يمكن إلا للجماعة الكلابية بأسرها احتماله، وحتى في هذه الحالة فإن ذلك لا يتم إلا بصعوبة وبصورة جزئية فحسب، ذلك أنه ينهار مراراً وتكراراً كأنه ميراث مهمل تركه الأجداد، وينبغي تجديده بصورة شاقة، ودع جانباً الحديث عن صعوبات شروط تحرياتي التي يصعب الوفاء بها! ما من حاجة تدعو أحداً إلى أن يلفت نظري إلى ذلك، فأنا أعرفه، كما يعرفه أي كلب متوسط المدارك سليم الحواس. لست أطمح إلى التدخل في أمور علمية حقيقية، حيث أكنّ للمعرفة كل التوقير الذي تستحقه، لكني أفتقر من أجل زيادة المعرفة إلى الأداة والاجتهاد والفراغ، وكذلك على الأقل، وبصفة خاصة خلال السنوات القليلة الماضية، إلى الرغبة. إنني أبتلع طعامي. لكن أهون ملاحظة أولية، منهاجية سياسية - اقتصادية له لا تبدو لي جديرة بالقيام بها. وفي هذا الصدد فإن جوهر المعارف كافٍ بالنسبة لي، أي القاعدة التي تقطع بها الأم الرضاع عن صغارها وتدفعهم نحو الدنيا: «رووا الأرض قدر استطاعتكم». ترى أليس كل شيء متضمناً في هذا؟ ما الذي أضافه البحث العلمي منذ بدأه آباؤنا الأوائل من

أمور حاسمة الأهمية إليه؟ مجرد تفاصيل، وكم هي مثيرة للشك! لكن هذه القاعدة ستظل قائمة طالما بقينا كلاباً، فهي تدور حول غذائنا الرئيسي. حقاً لدينا موارد أخرى، لكنا لا نلجأ إليها إلا وقت الشدة. وإذا كان العام سنة وفرة، فإنه يمكننا العيش على ذلك الغذاء الرئيسي. نجده في الأرض. لكن الأرض بحاجة إلى عرقنا لتغذيتها، وبهذا الثمن وحده تقدم لنا غذاءنا، الذي يمكن الإسراع بظهوره كذلك، وهذا لا ينبغي أن ينسى، من خلال بعض التعاويذ والأغاني والحركات الطقوسية. لكن في اعتقادي أن هذا هو كل شيء، فليس ثمة أمر أساسي آخر يقال عن هذه المسألة. أضف إلى هذا أن الغالبية العظمى من الجماعة الكلابية تتفق معي في هذا الرأي، وعليّ بالقطع نفي صلتي بكل الآراء المنشقة حول هذه النقطة. وبصراحة ليس لدي طموح لأن أكون متميزاً، أو أن أدعي أني على صواب في مواجهة الأغلبية. ولعل الشعور الوحيد الذي يساورني حين أستطيع موافقة رفاقي، كما هو شأني في هذه الحالة، هو الغبطة. غير أن تحرياتي تجري في اتجاه آخر. وتدلني ملاحظتي الشخصية على أن الأرض حين تروى وتنبت وفقاً للقواعد العلمية تعطي دفقاً من الغذاء، وفضلاً عن هذا بالنوعية وبالوفرة والطرق والأماكن والأوقات التي تقتضيها القوانين التي أرساها العلم كلياً أو جزئياً. وإني لأتقبل هذا كله، لكن سؤالي هو ما يلي: من أين تأتي الأرض بهذا الغذاء؟ وهو سؤال يدعي الناس بصفة

عامة عدم فهمه، وأفضل إجابة عليه يمكنهم طرحها هي: «إذا لم يكن لديك ما يكفيك من الغذاء فسنعطيك بعضاً من غذائنا» الآن تأمل هذه الإجابة! اعرف أنه ليس من فضائل عالم الكلاب اقتسام الطعام الذي كسبه المرء يوماً من الآخرين فالحياة صعبة، والأرض عنيدة، والعلم ثري بالمعرفة، لكنه مدقع في النتائج العملية، ومن يملك الطعام يحتفظ به لنفسه. تلك ليست أنانية، وإنما هي على العكس قانون كلابي، والقرار الجماعي للناس، ونتاج انتصارهم على الأنانية، فالملاك أقلية دائماً، ولهذا السبب فإن الرد القائل: «إذا لم يكن لديك ما يكفيك من الغذاء فسنعطيك بعضاً من غذائنا» هو مجرد لغو، أضحوكة، مزاح. لم أنسَ ذلك، لكنه بدا لي أكثر أهمية حينما كنت أندفع في كل مكان بأسئلتي في هاتيك الأيام حتى أنهم نحوا المزاح جانباً فيما يتعلق بي، لم يقدموا لي بالفعل ما آكله - فمن أين لهم أن يعثروا عليه في التو واللحظة؟ وحتى إذا كان لدى أحدهم بعض الطعام، فمن الطبيعي أن ينسى كل شيء آخر في عماء جوعه. غير أنهم جميعاً كانوا جادين حينما تقدموا بعرضهم. صحيح أنه هنا وهناك كان يسمح لي ببعض الغث من الطعام، إذا ما كنت حاذقاً بما يكفي للمسارعة بانتزاعه. ترى كيف تأتّى أن يعاملني الناس على هذا النحو الغريب بمثل هذا التدليل وذلك الإيثار؟ ألأنني كنت كلباً مهزولاً سيء التغذية مهملاً احتياجاتي؟ لكن هناك أعداداً لا حصر لها من الكلاب سيئة التغذية تهيم على وجهها،

والآخرون ينتزعون حتى أحقر ألوان الطعام من تحت أنوفهم، حينما يستطيعون ذلك، دون أن يكون هذا في الغالب راجعاً للشراهة، وإنما هي مسألة مبدأ. لا. لقد عاملوني بإيثار خاص. ليس بوسعي أن أقدم برهاناً تفصيلياً على هذا، لكن لدي قناعة راسخة بأن الأمر كان كذلك. أتراها كانت أسئلتي هي التي بعثت السرور فيهم ونظروا إليها بشكل عام باعتبارها أسئلة غبية، ومع ذلك فربما كانت أسئلتي وحدها هي التي جعلتني أظفر باهتمامهم، بدا كما لو أنهم يؤثرون إتيان المستحيل. أي إيقاف فمي بحشوة بالطعام -لم يفعلوا ذلك، لكنهم ودوا لو فعلوه- على تحمل أسئلتي. ولكنهم في تلك الحالة كان من الخير لهم طردي ورفض الإصغاء لأسئلتي. لا. ما أرادوا ذلك، لم ينشدوا حقاً الإصغاء إلى أسئلتي. لكن طرحي للأسئلة هو الذي جعلهم لا يرغبون في طردي بعيداً. كان ذلك هو الوقت الذي -رغم تعرضي للسخرية ومعاملتي كجرو سخيف ودفعي هنا وهناك- حظيت فيه بأعظم تقدير علني لم يقدر لي أبداً التمتع بما يضاهيه. كنت ألج كل الأماكن دون أن توضع عقبة في طريقي، كنت أحس بالسعادة لإطرائي رغم أن هذه السعادة تنكرت في صورة الوقاحة. وكان كل شيء يرجع حقاً إلى أسئلتي، نفاذ صبري، وتعطشي للمعرفة. أترى أرادوا تخديري حتى أغفو أو إبعادي دونما عنف بل وبمحبة على وجه التقريب عن طريق كان مضللاً لكنه ليس مضللاً تماماً إلى حد

يسمح بالعنف؟ كذلك حال إجلال ورهبة من نوع ما دون لجوئهم إلى العنف. حزرت حتى في هاتيك الأيام شيئاً من هذا. أما اليوم فإني أعرفه تماماً، وعلى نحو يفوق كثيراً أولئك الذين مارسوه في ذلك الوقت: كان ما أرادوه هو حقاً إبعادي عن طريقي. لم يفلحوا، وإنما حققوا العكس، فقد بلغت يقظتي حد الرهافة. أضف إلى ذلك أنه أصبح جلياً لي أنني كنت أحاول اجتذاب الآخرين، وأنني نجحت في ذلك إلى حد معين. بمساعدة عالم الكلاب بأسره فحسب كان يمكنني البدء في فهم أسئلتي، فعلى سبيل المثال حينما سألت: «من أين تأتي الأرض بهذا الغذاء؟» أتراني كنت معنياً على نحو ما قد توحي المظاهر بالأرض؟ أتراني كنت معنياً بضروب كدحها؟ كلا، على الإطلاق. فقد كان ذلك على نحو ما قدر لي أنْ أدرك سريعاً بعيداً عن ذهني. وكل ما كنت معنياً به هو جنس الكلاب وحده، ولا شيء آخر سواه. فماذا هنالك بالفعل غير جنسنا؟ ولأي جنس آخر يمكن أن يتجه المرء بالنداء في العالم الفسيح الخاوي؟ إن المعرفة بأسرها وكل الأسئلة والردود متضمنة في الكلب. لو أن بمقدور المرء أن يدرك تلك المعرفة! لو أن المرء كان بوسعه أن يخرج بها إلى النور! لو قدر لنا نحن معشر الكلاب أن نعرف بلا انتهاء أكثر مما نعترف به لنفسنا! إن أكثر الكلاب ثرثرة يلتزم بشأن معرفته كتماناً أشد مما يلتزمه بشأن الأماكن التي يمكن العثور فيها على طعام طيب. مرتعشاً

بالرغبة، جالداً نفسك بذيلك، تتسلل بحذر نحو أخيك الكلب، تسأل، ترجو، تنبح، تعض، وتحقق - وتحقق ما كان بوسعك أن تحرزه دونما جهد: الاهتمام الودود، التماس الحميم، التقبل المخلص، الأحضان الحارة، أفانين النباح التي تتشابك كأنها نباح واحد، كل شيء يوجه لتحقيق نشوة، نسياناً ولقاءً من جديد. لكن الشيء الذي تحن للفوز به قبل أي شيء آخر، أي السماح لك بالوصول إلى المعرفة، يظل محرماً عليك. إزاء مثل هذه الابتهالات، سواء أكانت صامتة أم مدوية، فإن الإجابة الوحيدة التي تحصل عليها حتى حين تكون قد أعملت قدراتك على الإقناع حتى أقصاها هي تحديقات جوفاء، لمحات يشاح بها، وأعين مضطربة مغللة. إنه الشيء ذاته الذي وقع حينما كنت جرواً لا غير وهتفت بالكلاب الموسيقيين فظلوا صامتين.

الآن قد يقول امرؤ: «إنك تعذب نفسك بسبب إخوتك الكلاب، بسبب التزامهم الصمت إزاء أسئلة هامة، وتؤكد أنهم يعلمون أكثر مما يعترفون به، وأكثر مما يسمحون بأن يكون ملزماً لهم، وأن هذا الصمت، الذي أخفى ضمناً كذلك سببه الغامض، يسمم وجودك، ويجعل هذا الوجود أمراً لا يطاق بالنسبة لك، بحيث أنه يتعين عليك إما أن تغيره أو تتعايش معه. وقد يكون الأمر كذلك، لكنك بدورك كلب، ولديك أيضاً المعرفة الكلبية. طيب. هاتها! لا في شكل سؤال فحسب، وإنما في صورة إجابة لو أنك بحت بها، فمن ذا سيفكر في

معارضتك؟ ستنضم جوقة عالم الكلاب الهائلة إليك كما لو كانت في انتظارك، عندئذ سيكون لك من الوضوح والحقيقة والمجاهرة بقدر ما تشاء، سيفتح عنوة سقف هذه الحياة التعسة التي تحدثت عنها حديثاً فظاً، وسنرقى جميعاً كتفاً إلى كتف إلى عالم الحرية الجليل. فإذا لم نحقق الكمال النهائي، إذا ما غدت الأمور أسوأ من ذي قبل، إذا ما عجزت الحقيقة عن الشموخ بقامتها فوق نصف الحقيقة، إذا ما ثبت أن الصامتين على حق كحراس الوجود، وإذا ما تداعى الأمل الواهن الذي لا يزال يداعبنا مفسحاً السبيل لليأس المطبق، فإن المحاولة تظل جديرة باجتراحها، حيث إنك لا ترغب في العيش على نحو ما أنت مجبر على أن تحيا. طيب، إذن، لِمَ توجه اللوم إلى الآخرين لالتزامهم الصمت فيما تظل صامتاً بدورك؟».

ومن اليسير الرد: لأنني كلب محاصر جوهرياً بالصمت كالآخرين، أقاوم في عناد أسئلتي، ومتصلب من جراء الخوف. وإذا ما شئنا التزام الدقة لتساءلنا: أتراني على الأقل منذ سنوات نضجي. سألت إخوتي الكلاب آملاً أنهم قد يجيبونني؟ أو قد راودني حقاً مثل هذا الأمل الأحمق؟ بمقدوري أن أتأمل أسس وجودنا وأحزر عمقها وأرقب الكدح في رفعها، ذلك الكدح الأسود وأتوقع أن يتخلى عن كل هذا وأن يهم ويقوض لأنني أطرح سؤالاً؟ كلا. ما عدت أتوقع ذلك. إنني أفهم رفاقي الكلاب. أنا بضعة من لحمهم، من لحمهم التعس، دائم التجدد

أزلي التوق، غير أن اللحم والدم ليسا هما فحسب ما يربطنا، وإنما المعرفة كذلك. ليست المعرفة وحدها، وإنما مفتاحها أيضاً. لست أملك ذلك المفتاح، اللهم إلا بالاشتراك مع الآخرين كافة، ولا أستطيع تملك ناصيتها دونما عون منهم. وأصلب العظام التي تضم أبدع النخاع لا يمكن قهرها إلا بالسحق الموحد لكل أسنان الكلاب كافة. ذلك بالطبع هو مجرد تشبيه ومبالغة، ولو أن الأسنان كلها كانت متأهبة لما كانت هناك حاجة إلى القضم، فسوف تتصدع العظام من تلقاء نفسها، وسيغدو الوصول إلى النخاع أمراً ممكناً لأوهن الكلاب. ولو أني التزمت بهذا التشبيه، فإن المقصود من وراء أهدافي وأسئلتي واستفساراتي سيبدو شيطانياً. هذا صحيح، ذلك أني أريد إجبار الكلاب جميعاً على أن تتجمع معاً على هذا النحو. أرغب في أن تتصدع العِظام متفتحة تحت ضغط هذا الاستعداد الجماعي. أريد عندئذ أن أصرفهم ليعودوا للحياة العادية التي يعشقون، فيما آخذ وحيداً، وحيداً تماماً في لعق النخاع. يبدو ذلك شيطانياً، كما لو كنت أرغب في أن أتغذى لا على نخاع عظمة واحدة، وإنما على نخاع جنس الكلاب ذاته بأسره. لكنه محض تشبيه فحسب. والنخاع الذي أناقش أمره هنا ليس طعاماً، وإنما هو على العكس سم.

عملت أسئلتي فحسب كمهماز ينخسني، وكل ما أردته أن يستحثني الصمت الذي يشمخ حولي كأنه الرد النهائي: «إلى

متى تظل قادراً على تحمل الحقيقة التي جعلتها أبحاثك أكثر وضوحاً والقائلة بأن عالم الكلاب مكرس للصمت وسيظل كذلك دائماً؟ إلى متى تظل قادراً على تحملها؟» ذلك هو سؤال عمري الكبير الحقيقي والذي تتضاءل أمامه كل الأسئلة الأصغر. إنه سؤال مطروح عليّ وحدي، ولا يعني أحداً آخر، ومن سوء الطالع أني أستطيع الرد عليه بسهولة أكبر مما هو الحال بالنسبة للأسئلة الأصغر الأكثر تحديداً، ولربما أصمد حتى نهايتي الطبيعية، ولسوف تبدي سكينة الكهولة مقاومة أعتى في مواجهة سائر الأسئلة التي تقض المضجع. من المحتمل أني سألفظ أنفاسي الأخيرة في صمت، ومحاطاً في الصمت، وبسلام حقاً على وجه التقريب، وإني لأتطلع إلى ذلك برباطة جأش. لقد وهبنا قلباً قوياً، ورئتين يستحيل أن تصابا بالبلى قبل أوانهما، وكأنما عن قصد إلحاق الإيذاء بنا، إننا نتجاوز سائر الأسئلة حتى أسئلتنا نحن. إننا قلاع من الصمت.

تزايد لجوئي مؤخراً إلى تفحص حياتي، بحثاً عن الخطأ الحاسم والأساسي الذي وقعت فيه يقيناً وليس بوسعي الوصول إليه، ولكني اقترفته قطعاً، فلو أني لم أقترفه وعجزت مع ذلك من خلال عملي الكادح الذي استمر عمراً طويلاً عن تحقيق رغبتي فسيبرهن ذلك على استحالة رغبتي ويتعين أن يعقب ذلك يأس مطبق. تأمل إذن العمل الذي استنفذ عمري! ففي المقام الأول هناك استفساراتي حول السؤال: من أين تأتي

الأرض بالطعام الذي تقدمه لنا؟ ككلب شاب يتطلع بشره في أعماقه إلى الحياة تخليت عن سائر المتع، تجنبت على نحو مؤلم المباهج كافة، دفنت رأسي بين برثني الأماميين حينما كان الإغراء يواجهني، وانكببت على مهمتي. لم أكن دارساً مثقفاً، لا من حيث المعلومات التي حصلتها، ولا من حيث المنهاج الذي أطبقه، أو القصد من وراء مهمتي. ربما كان ذلك عيباً، لكنه لم يكن من شأنه أن يكون عيباً حاسماً. كنت قد تلقيت القليل من التعليم، فقد غادرت رحاب رعاية أمي في سن مبكرة وسرعان ما تعودت الاستقلال، وعشت حياة حرة، والاستقلال قبل الأوان يلحق الضرر بالتعلم المنتظم، لكني رأيت الكثير، وأصغيت للكثير، وتحدثت مع كلاب من كل الأنواع يعيشون في ظل جميع الظروف وفهمت كل شيء، فيما أعتقد، بقدر من الذكاء، وربطت ملاحظاتي بصورة ذكية، والتي عوضت هوناً عن افتقاري للتعليم، دع جانباً أن الاستقلال وإن كان نقصاً فيما يتعلق بعلم الأشياء إلا أنه ميزة فعلية حينما يقوم المرء باستفساراته الخاصة، وفي حالتي كان أكثر ضرورة حيث أني لم أكن قادراً على استخدام المنهج العلمي الحق لأتيح لنفسي ثمار أعمال من سبقوني، وأحقق الاتصال بالباحثين المعاصرين. كنت محاصراً تماماً في إطار مواردي الخاصة. بدأت منذ البداية ذاتها، وبالوعي الملهم للشباب وإن كان محطماً تماماً للكهولة، بحيث إن النقطة الاتفاقية، التي أمضي بجهودي الكادحة نحوها،

ينبغي أن تكون كذلك النقطة النهائية. أتراني حقاً كنت وحيداً إلى هذا الحد في استفساراتي منذ البداية وحتى الآن؟ أجل، وكلا، فمن غير المقنع ألا يوجد دائماً، وفي الوقت الحالي كذلك، كلاب منفردون يعيشون حالة كحالتي. ليس من الممكن أن أكون ملعوناً على هذا النحو، فأنا لا أنحرف عن الطبيعة الكلابية قيد أنملة، لدى كل كلب الدافع مثلي إلى التساؤل، كما أن لديّ شأن الكلاب جميعاً الدافع إلى عدم الرد. الجميع لديهم الدافع للتساؤل. فكيف كان يمكن لأسئلتي بغير ذلك أن تؤثر في السامعين أدنى تأثير -ولسروري المفعم بالنشوة فإنهم غالباً ما تأثروا، وهو سرور عليّ أن أقر بأنه مبالغ فيه- وكيف كان يمكن دون ذلك أن يحال بيني وبين تحقيق أكثر مما حققت؟ ومن سوء الطالع أن وجود دافع قاهر لديّ لالتزام الصمت ليس بحاجة إلى برهان خاص. إذن فلست أختلف في أعماقي بحال عن أي كلب آخر، سيقر الجميع بسرعة، أياً كان اختلاف رأيهم مع رأيي ورفضهم لوجهات نظري بذلك. وبدوري سأعترف بذلك شأن أي كلب آخر، ولن يختلف إلا تركيب العناصر، وهو خلاف هام للفرد، وله مغزاه بالنسبة للجنس الكلابي. وكيف يمكن للمرء أن يعتقد أن تركيب هذه العناصر المتاحة لم يتصادف أبداً على امتداد الماضي بأسره والحاضر أن أسفر عن مزيج مماثل لمزيجي وفوق هذا إذا نظر إليّ مزيجي باعتباره سيء الطالع لم يتصادف أن أسفر عن مزيج أكثر إيغالاً

في سوء الطالع؟ إن الاعتقاد بهذا سيأتي مناقضاً للتجارب كافة، فنحن الكلاب منهمكون جميعاً في أغرب الاهتمامات، اهتمامات يرفض المرء تصديقها إذا لم تتح له أكثر المعلومات يقينية حولها. وأفضل مثال يمكن لي ضربه هو الكلب المحلق. في المرة الأولى التي سمعت فيها بكلب محلق ضحكت، ورفضت تصديق الأمر. ماذا؟ أيراد من المرء أن يصدق أن هناك نوعاً صغيراً للغاية من الكلاب، لا يزيد حجمه عن رأسي وذلك حينما يكون في قمة نموه. وهذا الكلب، الذي لا بد أن يكون بالطبع مخلوقاً ضعيفاً، متكلفاً، مهزولاً، ممشط الشعر مجعده بكل المقاييس، عاجزاً عن إتيان قفزة مطلقة، ووفقاً لما يرويه الناس، فإن هذا الكلب يفترض أن يظل معظم الوقت معلقاً عالياً في الهواء لا يفعل شيئاً على الإطلاق فيما يبدو إلا المكوث في ارتياح هناك؟ كلا، حدثت نفسي قائلاً إن محاولة جعلي أبتلع مثل هذه الأمور هي استغلال لبساطة كلب صغير بوقاحة بالغة. لكني سمعت بعد ذلك بوقت قصير من مصدر آخر صورة عن كلب محلق آخر. أيمكن أن تكون هناك مؤامرة لخداعي؟ ولكن عقب ذلك رأيت الكلاب الموسيقيين بأم عيني. من ذلك اليوم اعتبرت كل شيء ممكناً، ولم يحل أي من ضروب التميز دون انطلاق قوة إدراكي. تحريت أمر أكثر الشائعات تجرداً من المعقولية، وتتبعتها إلى حيث بمقدورها أن تقودني. بدت لي أشد الأمور بُعداً عن العقل في هذا العالم المجنون أكثر احتمالاً من

أقربها للعقل، بل وبصفة خاصة أكثر خصوبة من حيث صلاحيته للتحري. هكذا كان الأمر بالنسبة للكلاب المحلقة، فاكتشفت الكثير من الأشياء عنها. حقاً إنني لم أفلح حتى اليوم في مشاهدة أي منها، لكني اقتنعت بوجودها منذ وقت طويل، وهي تحتل مكاناً هاماً في صورتي عن العالم. وكالمعتاد فإن أسلوبها لم يكن هو الذي أسلمني بالطبع للتفكير. من العجيب -من الذي يستطيع أن ينكر ذلك؟- إن هذه الكلاب قادرة على التحليق في الهواء، وفي إعجابي الممتزج بالدهشة بذلك أتفق مع إخوتي من الكلاب، لكن ما هو أشد غرابة بالنسبة لذهني بكثير هو اللامعقولية، لا معقولية وجودها. فهذه الكلاب لا علاقة لها من أي نوع بالحياة العامة للجماعة الكلابية. إنها تحلق في الهواء، وهذا هو كل ما هنالك. تمضي الحياة في دربها المعاد، وبين الفنية والأخرى يشير أحدهم إلى الفن والفنانين، لكن الأمر ينتهي عند هذا الحد. ولكن لماذا يا كلابي الطيبين؟ لماذا بحق الجحيم يحلق أولئك الكلاب في الهواء؟ وأي معنى يكمن فيما يقومون به؟ لم لا نستطيع الحصول على إيضاح قصير بشأنه؟ لماذا يحلقون عالياً هناك تاركين أرجلهم، فخر الكلاب، تتدلى الهجران متشبثين بالانفصال عن الأرض مانحة الغذاء حاصدين دون أن يكونوا قد زرعوا حيث سمعت أنهم يحيون حياة مترفة وعلى حساب المجتمع الكلابي كذلك؟ بوسعي أن أطري نفسي حيث إن تحرياتي حول هذه الأمور أثارت بعض الضجيج.

شرع الناس بحسب الصرعة السائدة يجرون تحريات، ويجمعون معلومات. على الأقل بدأوا رغم أنهم لا يحتمل أن يمضوا قدماً، ولكن ذلك في النهاية إنجاز متواضع. ورغم أن الحقيقة لن تكتشف بمثل هذه الوسائل -لا يمكن الوصول إلى هذه المرحلة أبداً- إلا أنهم ألقوا الضوء على بعض العواقب الأكثر عمقاً للزيف، ذلك أن كل ظواهر وجودنا اللامعقولية والأكثر إيغالاً في التجرد من المعقولية من بينها صالحة لإجراء التحريات بشأنها، ليس بصورة كاملة بالطبع -فتلك هي المهزلة الوحشية- وإنما على نحو كافٍ لتجنيب المرء مغبة التعرض للأسئلة المؤلمة. خذ الكلاب المحلقة مرة أخرى كمثال! فهم ليسوا متعالين، كما قد يتصور المرء في بادئ الأمر، ولكنهم معتمدون بصفة خاصة على رفاقهم الكلاب، وإذا ما حاول المرء أن يضع نفسه موضعهم لأدرك ذلك. ذلك أنه يتعين عليهم أن يفعلوا ما بوسعهم ليغتفر لهم ما يأتونه على ألا يكون ذلك صراحة -إذ سيكون ذلك انتهاكاً للالتزام بمعانقة الصمت- عليهم أن يأتوا ما بمقدورهم لينالوا غفران طريقة حياتهم أو أن يحولوا الانتباه عنها لتنداح في النسيان - وهم يقومون بذلك، فيما قيل لي، من خلال ثرثرة لا تطاق على وجه التقريب. إنهم يتحدثون باستمرار، في جانب عن تأملاتهم الفلسفية، التي يشغلون بها أنفسهم باستمرار بعد أن تخلوا تماماً عن الجهد البدني. وفي جانب آخر عن الملاحظات التي توصلوا إليها من أماكنهم

السامقة. وعلى الرغم من أنهم، كما هو مفهوم تماماً في ضوء وجودهم الكسول، لا يتميزون بالقوة الذهنية، وفلسفتهم تافهة كملاحظاتهم، والعلم لا يمكن أن يفيد مما يهرفون به، كما أنه لا يتدنى إلى تلقي المساعدة من مثل هذه المصادر التعسة. رغم ذلك فإنه إذا ما تساءل امرؤ ماذا تفعل الكلاب المحلقة حقاً فإنه سيرد عليه وكأنما برد واحد بأنهم يقدمون مساهمة جليلة في المعرفة، فيلاحظ أحدهم: «هذا صحيح، لكن مساهماتهم تافهة ومضجرة» ويأتي الرد على هذا بهزة كتف أو بتغيير الموضوع أو إبداء الضيق أو الضحك، وخلال وقت قصير حين تتساءل مجدداً يكون بمقدورك أن تعلم مرة أخرى أنهم يساهمون في المعرفة، وفي النهاية حين يطرح هذا السؤال عليك، فإنك بدورك ترد -إذا لم تلتزم الحذر- بالرد نفسه. وربما كان شيئاً طيباً حقاً ألا يكون المرء عنيداً للغاية، وإنما يذعن للعاطفة السائدة، فلا يشتط به العناد حتى ليرفض الكلاب المحلقة الموجودة ودون أن يعترف بحقها في الوجود، فذلك ما لا يمكن القيام به، غير أنه لا تنبغي المطالبة بأكثر من هذا، فمن شأن ذلك أن يكون تجاوزاً بالغاً، ومع ذلك فقط طرح المطلب. فنحن نطالب بصورة مستمرة بأن نحتمل الكلاب المحلقة الجديدة التي تلوح مقبلة دائماً: والمرء لا يعلم حتى من أين تصل، هل تتكاثر هذه الكلاب بالتوالد؟ هل تملك القوة بالفعل لإتيان ذلك؟ - ذلك أنها ليست إلا غطاءً جميلاً من

الشعر، وماذا في ذلك يمكن أن يؤدي حدث التكاثر؟ ولكن حتى إذا كان هذا الاحتمال البعيد قائماً، فمتى يمكن أن يحدث؟ ذلك أن الكلاب المحلقة ترى دائماً منفردة محلقة راضية عن نفسها عالياً في الهواء، وإذا ما حدث مرة أن هبطت لتعدو قليلاً، فإن ذلك لا يستغرق إلا دقيقة أو دقيقتين، خطوات متكلفة التأنق، ثم تعود إلى عزلتها الصارمة مستغرقة فيما يفترض أنه تفكير عميق، لا يمكنها التحرر منها حتى حين تبذل أقصى ما في وسعها، أو على الأقل هذا ما تقوله. ولكن إذا ما كانت الكلاب المحلقة لا تتوالد لتبقي نوعها، هل من المعقول أن هناك كلاباً تتخلى عن الحياة فوق الأرض الصلبة لتصبح كلاباً محلقة، وتختار لا لشيء إلا من أجل الراحة وإنجاز فني بعينه حياة خاوية على الوسائد في الأعالي هناك؟ ذلك أمر لا محل للتفكير فيه، لا موضع للتفكير بشأنه، سواء بالنسبة للتوالد أو الانتقال الاختياري. غير أن الحقائق تظهر أن هناك باستمرار كلاباً محلقة جديدة تتبدى، وهو الأمر الذي يتعين على المرء أن يخلص منه إلى أنه على الرغم من العقبات التي تبدو لفهمنا مستحيلة التجاوز فإنه ما من نوع من الكلاب أياً كان مدى ترحيبه ينقرض إذا ما وجد، أو على الأقل بغير كفاح شاق، دون أن يكون قادراً على الدفاع الناجح عن نفسه لوقت طويل.

ولكن إذا كان هذا صحيحاً بالنسبة لنوع عابر وغريب المهر وبعيد عن الكفاءة كالكلاب المحلقة، ألا يتعين عليّ كذلك

قبوله باعتباره صحيحاً بالنسبة لي؟ إلى جانب هذا فلست شاذ المظهر بحال، كلب عادي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة، على نحو ما هو سائد في هذا الحي، على الأقل. لست متميزاً على نحو خاص بأي شكل، كما أنني لست منفراً بصورة بارزة. في شبابي، وإلى حد ما في سن نضجي، طالما عنيت بمظهري، وقمت بالكثير من التدريبات. كنت أعد بالفعل كلباً بالغ الرشاقة، كذلك حظي ملمحي الأمامي بإعجاب خاص، وأيضاً قوائمي الرشيقة ورأسي البديعة، لكن فروتي الشهباء المختلطة بالصفرة والتي لم تكن تتجعد إلا عند أطراف الشعر كانت رائعة كذلك. عموماً لم يكن ثمة ما هو غريب. والشيء الوحيد الغريب فيّ هو طبيعتي، ولكن حتى تلك كانت على نحو ما أحرص على التذكر تستمد أساسها من الطبيعة الكلابية الشاملة. الآن إذا كانت الكلاب المحلقة ذاتها لا تحيا في عزلة، وإنما تفلح دون استثناء في الالتقاء برفاقها في مكان أو آخر في العالم الكلابي الفسيح، بل وتستحضر أجيالاً جديدة من نوعها من العدم، فإن بمقدوري بدوري أن أحيا متيقناً من أنني لست وحيداً مهجوراً تماماً. يقيناً أن مصير من ينتمون إلى نوعيتي غريب، ولا يمكن أن يكون لوجود زملائي على الإطلاق نفع منظور إن لم يكن لشيء فلأني لا أستطيع تعرفهم. إننا كلاب يسحقها الصمت، تحن إلى الانعتاق منه، بل وبالمعنى الحرفي للكلمة إلى استنشاق ملء الرئتين لمرة واحدة من الهواء النقي. حقاً إن الآخرين

يبدون كما لو كانوا ينمون على الصمت، إلا أن ذلك أمر ظاهري فحسب، كما في حالة الكلاب الموسيقيين الذين التزموا الصمت في عناد، بينما كانوا يعزفون، وإن كانوا في الواقع يعيشون حالة من الاستثارة المكثفة. رغم ذلك فإن الوهم قوي للغاية، يحاول المرء أن يصنع ثغرة فيه، لكنه يسخر من المحاولات جميعها. فأي عون يجده زملائي إذن؟ وأي محاولات يبذلونها ليفلحوا في مواصلة الحياة رغم كل شيء؟ قد تنتمي هذه المحاولات إلى أنواع عديدة. وكانت حمى التساؤل التي انتابتني صغيراً إحدى هذه المحاولات. لذا ظننت أنني ربما إذا ارتبطت بأولئك الذين يطرحون العديد من الأسئلة فقد أعثر على رفاقي الحقيقيين. طيب. لقد فعلت ذلك لبعض الوقت بضبط عظيم للنفس، وهو الأمر الذي كان ضرورياً من جراء الضيق الذي استشعرته لدى مقاطعتي بأسئلة منهمرة، لم يكن بوسعي غالباً الرد عليها بنفسي، ذلك أن الشيء الوحيد الذي يعنيني هو الحصول على ردود. أضف إلى ذلك من ذا الذي لا يتوق إلى طرح الأسئلة في يفاعته وكيف يتسنى لك أن تلتقط الإجابة الصائبة في الوقت الذي تحيط بك فيه أسئلة عديدة على هذا النحو؟ السؤال يحكي الآخر، والقصد هو الذي يهم، ولكن ذلك غالباً ما يحجب حتى من جانب من يطرح السؤال. فضلاً عن هذا فإنه مما يميز الكلاب طرحها الدائم للأسئلة، إنها تطرحها خالطة فيما بينها جميعاً، وكأنها في قيامها بذلك إنما

تحاول طمس كل أثر للأسئلة الأصلية. لا. إن رفاقي الحقيقيين لا يمكن العثور عليهم وسط طارحي الأسئلة اليافعين، والقليل منهم في صفو الكهول والصامتين الذين أنتمي إليهم الآن، ولكن ما جدوى كل هذه الأسئلة، ذلك أنها خذلتني تماماً، ربما كان زملائي كلاباً تفوقني مهارة، لجأت إلى أساليب أخرى رائعة لتمكنها من تحمل هذه الحياة، وهي أساليب رغم ذلك، وكما أستطيع القول من خلال تجربتي الخاصة ومع أنها ربما تساعد قليلاً عند الحاجة، وقد تهدئ، وتحذر، وتحول الانتباه، فإنها عموماً عاجزة، شأن أساليبي، ذلك أنه أياً كان تلفتي فليس بمقدوري أن ألمح أثراً للنجاح الذي أحرزته. وأخشى أن آخر ما يمكنني أن آمل في التعرف عن طريقه على زملائي هو نجاحهم. ولكن أين إذن زملائي الحقيقيون؟ نعم، هذا هو وقر شكواي، ذلك هو لبها. أين هم؟ في كل مكان، وفي لا مكان. ربما كان جاري الذي يبعد عني ثلاث وثبات أحدهم. غالباً ما نتبادل النباح عن بُعد، بل ويزورني في بعض الأحيان كذلك، رغم أني لا أزوره. أهو زميلي الحقيقي؟ لست أدري، ويقيناً لا أرى فيهما يشير إلى ذلك، لكن ذلك محتمل، إنه محتمل. ولكن لا شيء بالمثل أبعد عن الإمكان من ذلك. مهما يكون بعيداً يمكنني تسلية نفسي بالإغراق في خيالي، مكشفاً فيه العديد من الأمور التي تحمل شبهاً بي يثير الشكوك ولكن ما إن ينتصب أمامي حتى تغدو كل تصوراتي مثيرة للسخرية هو كلب

عجوز، أصغر قليلاً في الحجم حتى مني -وأنا بالكاد متوسط الحجم- بني اللون، قصير الشعر، تتدلى رأسه إعياء، يمشي متثاقلاً فوق كل ذلك يعرج بقائمته اليسرى بسبب مرض ما ألمّ به. ومنذ وقت طويل ربطتني به صلة حميمة تفوق صلتي بأي شخص آخر ويسعدني القول بأن بمقدوري المضي معه بصورة محتملة، وحتى حين يمضي بعيداً فإنني أرفع الصوت عالياً بأكثر التحيات حميمية في وداعه، وإن لم يكن ذلك الصياح بسبب عاطفة نحوه بقدر ما هو راجع لغضبي من نفسي، ذلك أني إذا تبعته لوجدته مقززاً كعهده تماماً، هنالك بقائمته العرجاء وخطاه الوئيدة. في بعض الأحيان يبدو لي أنني أحاول إذلال نفسي بأن أدعوه في وحدتي زميلاً لي. كما أنه لا يفصح في أحاديثنا عن أي وجه للشبه معي في التفكير. حقاً إنه حاذق ومستنير فيما يتعلق ببعض الأمور هنا، وقد تمكنت من تعلم الكثير منه. ولكن أتراني أبحث عن الحذق والاستنارة؟ عادة ما نتجاذب أطراف الحديث حول مسائل محلية، فأدهش -جعلتني عزلتي ثاقب البصيرة فيما يتعلق بمثل هذه الأمور- ما أوفر الذكاء الذي تمس إليه الحاجة حتى بالنسبة لكلب عادي وحتى في ظروف عادية وغير معاكسة إذا ما أراد أن يعيش حياته وأن يحمي نفسه ضد الأعظم من مخاطر الحياة العادية! حقاً إن المعرفة تقدم القواعد التي ينبغي اتباعها، ولكن حتى استيعاب هذه القواعد بصور منقوصة وفي خطوطها العريضة ليس

بالعمل اليسير، وحينما يستوعبها المرء بالفعل فإن الصعوبة الحقيقية تظل قائمة، ألا وهي تطبيق هذه القواعد على الظروف المحلية - هنا لا يمكن لأحد على وجه التقريب أن يقدم يد العون، وتجلب كل ساعة تقريباً مهاماً جديدة معها، وتفرز كل بقعة من الأرض مشكلاتها المحددة، ولا يستطيع أحد الذهاب إلى القول بأنه قد رتب كل شيء إلى الأبد، وأنه من الآن فصاعداً ستمضي الحياة من تلقاء ذاتها، إذ لا يمكن القول بذلك، ولا حتى بالنسبة لي كذلك على الرغم من أن احتياجاتي تنكمش بالمعنى الحرفي للكلمة بين يوم وآخر. وكل هذا الكدح الذي لا يتوقف - من أجل ماذا؟ لا لشيء إلا لكي يدفن المرء نفسه أعمق فأعمق في الصمت، فيما يبدو، عميقاً جداً إلى حد أن المرء لا يمكن أن ينتشل منه مرة أخرى على يد أحد.

غالباً ما يثني الناس على التقدم الشامل الذي أحرزته الجماعة الكلابية عبر العصور. ربما يقصدون بذلك بتحديد أكبر التقدم في المعرفة، ومن المحقق أن المعرفة تتقدم، فتقدمها لا يقاوم وهي تتقدم بالفعل بسرعة مضطردة، أكبر دائماً، ولكن ماذا في هذا يستحق الثناء؟ ذلك تطور طبيعي بل وقبيح لا أمد فيه ما يشاد به، بوسعي أن أرى الاضمحلال في كل ما يقال فحسب، لكنني في غمار قولي ذلك لا أقصد أن الأجيال السابقة كانت أفضل بصورة جوهرية من جيلنا، وإنما هي أكثر تفاهة، وقد كانت تلك ميزتها الكبرى، فلم تكن ذاكرتها مثقلة المهابة

على نحو ما هي ذاكرتنا اليوم. وكان من الأيسر جعل آراء هذه الأجيال يتحدثون، وحتى إذا لم يكن أحد قد أفلح بالفعل في القيام بذلك فإن الاحتمال كان أكبر، فهذا الشعور الأعظم بالإمكان هو الذي يؤثر فينا حقاً بمثل هذا العمق حينما يصغي إلى تلك القصص العتيقة والبسيطة على نحو غريب. هنا وهناك نمسك بعبارة هامة على نحو يثير الفضول، فنوشك أن ينقض واقفين إذا لم نشعر بوقر القرون على كواهلنا. لا. أياً كان افتراضي على عصري فإن الأجيال الأسبق لم تكن أفضل، بل كانت أسوأ بمعنى ما من المعاني، فحتى في تلك الأيام لم تكن العجائب تسير علناً في الطريق ليمسك أي عابر سبيل بها. لكن الكلاب على أي حال -ليس بمقدوري التعبير عن الأمر بأي شكل آخر- لم تصبح أكثر كلبنة في أي وقت على نحو ما هي عليه الآن، فصرح عالم الكلاب لم تكن دعائمه قد شيدت على ما هي عليه اليوم، كان لا يزال بمقدور الكلمة أن تتدخل لتخطط أو لتعيد تخطيط البناء، فتغيره وتقلبه إلى نقيضه كانت الكلمة هناك، للغاية على الأقل، على طرف لسان الجميع، وكان يمكن أن يلفظها أي كان. ما الذي أصبحت عليه اليوم؟ قد ينزع المرء قلبه اليوم فلا يجدها. لقد ضل جيلنا، ربما يكون هذا صحيحاً، لكنه أقل استحقاقاً للوم من الأجيال السابقة. بمقدوري فهم تردد جيلي، الذي لم يعد تردداً حقاً فحسب، وإنما هو النسيان الألف لحلم راود الأذهان ألف مرة، ونسي

ألف مرة. ومن ذا الذي يستطيع أن يلعننا لا لشيء لا لأننا نسينا للمرة الألف؟ لكنني أتصور أنني تفهم تردد أجدادنا كذلك، ولربما تصرفنا على النحو ذاته الذي تصرفوا في إطاره، بل إن بمقدوري على وجه التقريب أن أقول: شيء طيب بالنسبة لنا أننا لم نكن نحن الذين حملنا الذنب على كاهلنا، وأننا بالمقابل نستطيع أن نهرع بصمت لا يثقله الذنب تقريباً إلى الموت في عالم ألقى الآخرون بظلمتهم عليه. من المحقق أن آباءنا الأوائل حينما انحرفوا لم يكن لديهم أدنى تصور عن أن ضلالهم سيكون بلا انتهاء، لا يزال بوسعهم أن يروا بالمعنى الحرفي للكلمة مفترق الطريق، بدا أمراً يسيراً أن يعودوا أدراجهم متى طاب لهم ذلك، وإذا كانوا قد ترددوا في العودة فلم يكن ذلك إلا لأنهم أرادوا التمتع بالحياة الكلابية لوقت أطول قليلاً. لم تكن بعد حياة كلابية أصيلة، بدت بالفعل جميلة بصورة محمومة لهم، فماذا لو أنهم بقوا لوقت إضافي قصير للغاية، وهكذا أوغلوا في الجنوح. لم يدروا ما نستطيع الآن تخمينه في ضوء تأمل مسار التاريخ: أن التغير يبدأ في الروح قبل أن يتجلى في الوجود العادي، وأنهم حين بدأوا في استمراء الحياة الكلابية كانوا يتمتعون يقيناً بأرواح الكلاب العتيقة، وأنهم لم يكونوا قريبين للغاية من نقطة بدايتهم على نحو ما كانوا يظنون، أو على نحو ما حاولت عيونهم المبهجة بشتى المسرات الكلابية أن تقنعهم. ولكن من ذا الذي يستطيع الحديث عن الشباب في عصرنا

هذا؟ تلك كانت كلاباً فتية حقاً، ولكن من سوء الطالع أن طموحها الوحيد تمثل في أن تصبح كلاباً كهلة، وهو شيء ما كان لهم حقاً أن يخفقوا في تحقيقه، على نحو ما تظهر كل الأجيال المتعاقبة وما يوضح جيلنا، الجيل الأخير، بجلاء بالغ.

من الطبيعي أني لم أحادث جاري عن مثل هذه الأمور. رغم ذلك فإني لا أملك إلا التفكير فيها حينما أجثم قبالته -ذلك الكلب الكهل النموذجي- أو أدفن خطمي في فروة شعره، التي تحمل بالفعل نفحة من رائحة الجلود المنبوذة، فالحديث معه، أو حتى مع أي من الآخرين، سيكون أمراً لا معنى له. أعلم أي مسار سيتخذه الحديث. سيطرح اعتراضاً واهناً بين الفينة والأخرى، لكنه في النهاية سيوافق -الموافقة خير سلاح للدفاع- ثم يدفن الأمر: لِمَ حقاً نكترث على الإطلاق بنبشه؟ على الرغم من هذا فإن ثمة تفاهماً عميقاً بيني وبين جاري يوغل في عمقه تماماً الكلمات وراءه. لن أكف أبداً عن القول، رغم أني لا أملك برهاناً على صحة ما أذهب إليه، وربما كنت فحسب أعاني من حالة توهم عادية، ترجع إلى أن هذا الكلب كان لوقت طويل الكلب الوحيد الذي أجريت أي اتصال به، من ثم فإني مرغم على التشبث به: «أنت في النهاية زميلي بطريقتك الخاصة وتشعر بالعار لأن كل شيء أردته مني بالإخفاق؟ انظر! لقد حل المصير نفسه بي، وحينما أنفرد بنفسي أبكي مصيري. هلم! فلعله يبعث عزاء أرق في نفوسنا أن نبكي

سوياً» غالباً ما تراودني مثل هذه الأفكار، فأرمقه بنظرة متطاولة، فلا ينكس عينيه، لكن أحداً لا يستطيع بالمثل أن يطالع شيئاً فيها، يحدق فيّ باكتئاب متسائلاً لم ألتزم الصمت، ولم قطعت حبل الحديث. ولكن ربما كانت هذه النظرة ذاتها هي طريقته في مسائلتي، وربما كنت أخيب أمله تماماً على نحو ما يفجعني في أملي. في يفاعتي، وإن لم تكن هناك مشكلات أخرى أكثر أهمية بالنسبة لي وقتها، إذا لم يرضني تماماً من أشاركه الحديث، كنت ألجأ ربما إلى مساءلته بصورة مباشرة، فأتلقى رداً يتفق كلية معي. كان ذلك أسوأ حتى من صمت اليوم. ولكن لا يلتزم الجميع الصمت بالطريقة ذاتها؟ فماذا يمنعني من الاعتقاد بأن الجميع زملائي بدلاً من الظن بأن لي زميلاً أو زميلين فحسب من طارحي الأسئلة - ضاعا ولحقهما النسيان مع منجزاتهما البديعة فلا أملك وصولاً لهما أبداً عبر أي الدروب ومن خلل ظلمة العصور أو عجاج الحاضر المختلط، لم لا أعتقد أن الكلاب كافة منذ بداية الزمان كانت زملائي، وكانت جميعها كادحة بطريقتها الخاصة، وأخفقت كلها بطريقتها كذلك. تلتزم كلها الصمت أو تثرثر بأسلوبها الخاص على نحو ما يمكن للبحث اليائس أن يجعل المرء؟ ولكن في هذه الحالة ما كانت هناك حاجة تدعوني إلى النأي بجانبي عن رفاقي على الإطلاق، كان بمقدوري أن أمكث في هدوء وسط الآخرين، ما من حاجة تدعوني إلى شق طريقي كدحاً كطفل عنيد عبر

الصفوف المرصوصة للكبار، الذين يرغبون مثلما أرغب في أن يجدوا سبيلاً، والذين بدوا لي مستخلفين على الفهم بسبب معرفتهم التي أنهت إليهم أنه ما من أحد يملك قراراً وأنه من الغباء استخدام القوة.

غير أن مثل هذه الأفكار ترجع بالقطع إلى تأثير جاري. إنه يثير حيرتي، يملأني سخطاً. رغم ذلك فإنه على قسط كافٍ من السعادة، على الأقل حين يقبع في ملاذه غالباً ما أسمعه يرفع صوته ويغني، ذلك أمر لا يطاق حقاً. لسوف يكون أمراً طيباً أن أفصم هذه العروة الأخيرة كذلك، وأن أكف عن إفساح المجال للأحلام الغامضة، التي تثيرها سائر الاتصالات بالكلاب على نحو لا يمكن تجنبه أياً كان المدى الذي يذهب إليه المرء في اعتبار نفسه صلباً، وأن أستغل الوقت القصير الذي لا يزال متاحاً أمامي في مواصلة أبحاثي وحدي. في المرة المقبلة التي سيأتي فيها جاري سأتسلل خارجاً أو سأتناوم، وأواصل هذا المطهر إلى أن يكف عن زيارتي.

أصبحت أبحاثي كذلك متقطعة. أتراخي. أحس بالضجر أسير الهوينى في آلية حيثما كنت أهرع يوماً متحمساً. أفكر في الوقت الذي بدأت فيه التحري حول هذا السؤال: «من أين تحصل الأرض على هذا الغذاء؟» إذن فقد عشت حقاً وسط الناس شققت طريقي حيث كان الزحام أكثر كثافة، أردت أن يعرف الجميع عملي وأن يكونوا جمهوري، وكان جمهوري أكثر

أهمية بالنسبة لي حتى من عملي. كنت لا أزال أتوقع إحداث تأثير أو آخر، ومن الطبيعي أن ذلك زودني بقوة دفع كبرى، تبددت الآن وقد أصبحت وحيداً. ولكن في تلك الأيام كنت مليئاً بالقوة حتى إني حققت شيئاً لم يسبق له مثيل، شيئاً يختلف مع كل مبادئنا، ويستعيد كل شاهد عيان عاصره ذكراه الآن باعتباره عملاً فذاً. إن معرفتنا العلمية التي تنطلق نحو التخصص المتطرف بصفة عامة تتميز بالبساطة على نحو ملحوظ في مجال واحد. أعني حيث تقول بأن الأرض ينشأ منها طعامنا ثم بعد طرح هذا الافتراض تقدم الوسائل التي من خلالها يمكن الحصول على الأطعمة المختلفة في أفضل نوعياتها وأوفر كمياتها. الآن من الصحيح حقاً أن الأرض تحدث كل الطعام، فليس ثمة شك في هذا، لكن الأمر ليس بسيطاً على نحو ما يتصوره الناس، واعتقادهم أنه بسيط يحول دون جراء المزيد من البحث. خذ حدثاً عادياً يقع كل يوم! فإذا نحن التزمنا الفتور التام، على نحو ما أنا الآن عليه تماماً تقريباً، وبعد أن نقوم بنبش روتيني للأرض وريها، جثمنا منتظرين ما سيقع، فإننا عندئذ نجد الطعام على الأرض وذلك بافتراض أن وقوع نتيجة من نوع ما هو أمر حتمي. رغم ذلك فليس هذا هو ما يقع عادة. وأولئك الذين احتفظوا ولو بقدر محدود من حرية التقدير فيما يتعلق بالأمور العلمية -وعددهم قليل حقاً، ذلك أن العلم يرسم دوائر متزايدة الاتساع حول نفسه- سيرون بسهولة، ودون أن

يضطروا إلى إجراء تجارب خاصة، أن الجانب الرئيسي من الغذاء الذي يكتشف على الأرض في مثل هذه الحالات يأتي من أعلى، حقاً إننا عادة ما ننتزع بغلظة معظم غذائنا، بحسب حذقنا وشرهنا، قبل أن يبلغ الأرض على الإطلاق. غير أنني في غمار طرحي لهذا لا أقول شيئاً ضد العلم، فالأرض بالطبع تأتي بهذا النوع من الغذاء بدوره وربما ليس ثمة فارق جوهري بين ما إذا كانت الأرض تستمد نوعاً من الغذاء من جوفها وتجتذب نوعاً آخر من السماوات، وربما لا يحتاج العلم، الذي برهن على أنه من الضروري في الحالتين كلتيهما إعداد الأرض، إلى أن يشغل نفسه بمثل هذه الخلافات، أليس هو القائل: «إذا كان الغذاء بين فكيك فقد أجبت على كل الأسئلة في الوقت الراهن؟» لكن العلم فيما يلوح لي يبدي اهتماماً مقنعاً، على الأقل إلى حد ما، بهذه الأمور، من حيث إنه يعترف بأسلوبين للحصول على الغذاء، الإعداد الفعلي للأرض، وثانياً العمليات المساعدة المكملة كترديد التعاويذ والرقص والغناء. هنا أجد تمييزاً يتفق مع ذلك الذي قمت به بنفسي، ربما لم يكن قاطعا، لكنه واضح بما فيه الكفاية، وفي رأيي أن نبش الأرض وريها يؤديان إلى إنتاج الأنواع ذاتها من الغذاء، غير أن ما يظل لا غناء عنه أي الرقي والرقص والغناء فهو يتعلق بدرجة أقل بالغذاء الأرضي بالمعنى الأكثر تحديداً للكلمة، ويؤدي بالأساس إلى اجتذاب الغذاء من الهواء. وتساندني التقاليد في هذا التفسير،

والكلاب العادية ذاتها تعيد للعلم نشاطه هنا، دون أن تدري، ودون أن يكون العلم قادراً على أن يخاطر بالرد بكلمة واحدة. وإذا كانت هذه الطقوس، كما يزعم العلم، تتوجه إلى التربة وحدها، مانحة إياها القدرة، دعنا نقل، على اجتذاب الغذاء من الهواء، فمن المنطقي إذن أنها ينبغي أن تقتصر في توجهها على التربة، فالتربة هي التي ينبغي أن يهمس لها بالرقي، والتربة وحدها ينبغي أن يؤدي الرقص لها، وبقدر علمي فإن العلم لا يقدر على شيء غير هذا. ولكن هنا يأتي الشيء البارز، ألا وهو أن الناس في كل الطقوس الاحتفالية يحدقون باتجاه السماء وتلك ليست إهانة للعلم، حيث إن العلم لا يحظر القيام بذلك، وإنما هو يترك للمزارع حرية كاملة في هذا الصدد، ففي تعليمه لا يأخذ في الحسبان إلا التربة، وإذا ما نفذ المزارع تعليماته بشأن إعداد الأرض فإنه يقنع، غير أنه في رأيي ينبغي أن يطالب بأكثر من هذا إذا كان منطقياً. وعلى الرغم من أنني لم أكن يوماً متضلعاً في العلم، إلا أنني لا أستطيع أن أتصور كيف أن المتضلع فيه يستطيع أن يترك أهلنا، وهم العاطفيون الجامحون، يرددون رقاهم بوجوههم متجهة نحو السماء، ينبحون مرددين أغانينا الشعبية في الهواء، ويقفزون عالياً في رقصاتهم، وكأنهم وقد نسوا الأرض، يرغبون في التحليق بعيداً عنها إلى الأبد. اتخذت من هذا التناقض منطلقاً لي، ووفقاً للتعليمات العلمية وحيثما اقترب موعد الحصاد كنت أحصر انتباهي في الأرض.

كانت الأرض هي التي أخمشها في الرقص. وأوشكت أن أصيب عنقي بتشنج بإبقائي رأسي قريباً من الأرض قدر استطاعتي. فيما بعد حفرت حفرة لخطمي، ورحت أغني لها وأناجيها بحيث تسمعني وحدها، ولا يصغي إليّ أحد غيرها إلى جواري أو فوقي.

كانت نتائج تجربتي هزيلة، ففي بعض الأحيان لم يظهر الغذاء، وكنت بالفعل أتأهب للابتهاج لهذا البرهان، لكن عندئذ يظهر الغذاء. بدا الأمر كما لو أن سلوكي الغريب سبب بعض الارتباك في البداية، ثم برهن عقب ذلك على أن له مزايا، بحيث إنه في حالتي أمكن الاستغناء عن النباح والتقافز المعتادين حقاً إن الغذاء غالباً ما كان يظهر بكميات أوفر من السابق، ولكن عندئذ ينأى كلية. وبكد لم يعرفه حتى الآن كلب شاب دبجت تقارير دقيقة عن تجاربي، متخيلاً أني هنا وهناك كنت في أعقاب رائحة خافتة قد تمضي بي إلى ما هو أبعد، لكنها كانت عندئذ تضيع وسط الغموض. من المحقق أن عدم وجود أسس علمية راسخة لديّ قد أسهم في الوقوف بي عند هذا الحد، فأي ضمان كان لديّ على سبيل المثال على أن اختفاء الغذاء لم يسببه الإعداد غير العلمي للأرض وليس تجاربي، وإذا كان الأمر كذلك فإن كل استنتاجاتي كانت خاطئة، وفي ظروف معينة كان يمكن أن أكون قادراً على الوصول إلى تجربة دقيقة بصورة بالغة، أي إذا كنت قد نجحت في إنزال الغذاء ولو لمرة

واحدة بتعويذة تتضمن النظر إلى أعلى دون إعداد للأرض على الإطلاق، ثم أخفقت في انتزاع الغذاء بتعويذة موجهة إلى الأرض بصفة خاصة. لقد حاولت حقاً إتيان شيء من هذا القبيل، ولكن دون إيمان حقيقي به، ودون اكتمال الظروف كذلك، ذلك أن رأيي الثابت يتمثل في أن قدراً من إعداد الأرض هو أمر ضروري دائماً، وحتى إذا كان الخارجون الذين ينكرون ذلك على حق، فإن نظريتهم لا يمكن إثباتها بحال، حيث إن ري الأرض يؤدي في ظل نوع من الإرغام ولا يمكن في حدود معينة تجنبه. وقد حقت تجربة أخرى قريبة من ذلك نجاحاً أفضل وأثارت بعض الاهتمام الجماهيري. قررت انطلاقاً من الأسلوب المألوف لانتزاع الغذاء خلال وجوده في الهواء السماح للغذاء بالسقوط على الأرض وألا أبذل جهداً في اقتناصه، ووفقاً لهذا كنت أقفز دائماً في الهواء قفزة صغيرة حينما يلوح الطعام ولكني أجعل توقيتها بحيث لا تحقق الهدف المنشود منها دائماً. في معظم الأحوال كان الغذاء يسقط على الأرض بصورة كئيبة وفاترة على الرغم من هذا، فألقي بنفسي عليه ثائراً في عماء الغضب النابع من الجوع وخيبة الأمل. ولكن في حالات متفرقة حدث شيء آخر، شيء غريب حقاً، لم يسقط الغذاء، وإنما تبعني في الهواء، فالطعام يتبع الجياع. ما استمر ذلك طويلاً، وإنما لمسافة قصيرة دائماً، بعدها كان الطعام يسقط في النهاية أو يختفي كلية أو -وهذه هي الحالة الغالبة- تضع شراهتي نهاية سابقة

للأوان للتجربة، فألتهم الطعم الآسر. أياً كان الأمر فقد كنت سعيداً دائماً في ذلك الوقت. اجتاحت موجة من الفضول الحي الذي أقطنه، وجذبت انتباهاً يثير القلق، ألفيت معارفي أكثر تقبلاً لأسئلتي. كان بوسعي أن ألمح في أعينهم تألقاً بدا لي كما لو كان نداء استغاثة، وحتى لو كان هذا التألق انعكاساً لنظرتي فما كنت أنشد أكثر من ذلك. كنت راضياً، حتى اكتشفت أخيراً - واكتشف الآخرون في الوقت نفسه- أن تجربتي تلك هي تجربة عادية في مجال العلم، وأن آخرين أفلحوا في القيام بها على نحو أكثر تألقاً مني، وأنها لم تجر منذ وقت طويل بسبب الانضباط الذاتي الهائل الذي تقتضيه، وأنه ما من حاجة تدعو إلى تكرارها، فهي تثبت فحسب ما هو معروف جيداً، ألا وهو أن الأرض لا تجتذب الغذاء رأسياً فحسب من أعلى بشكل رأسي، وإنما بصورة جانبية، وفي بعض الأحيان على نحو لولبي حقاً. على هذا النحو تركت وحيداً مع تجربتي لكن ذلك لم يثبط عزيمتي، وإنما على العكس، فقد دفعتني خيبة الأمل تلك نحو ما قد يكون أعظم إنجاز في حياتي. لم أصدق محاولات العلماء للتهوين من شأن تجربتي، غير أن التصديق لم يكن له جدوى هنا، وإنما الدليل هو الذي يهم. فعقدت العزم على تحقيقه، وهكذا على رفع تجربتي من التفاهة الأصلية التي تتردى فيها ووضعها في قلب ميدان البحث ذاته. أردت أن أبرهن على أنني حينما تراجعت أمام الغذاء، فلم تكن الأرض هي التي اجتذبته

بصورة جانبية وإنما أنا الذي اجتذبته ورائي. لكنني لم أستطع المضي قدماً بتلك التجربة الأولى، فأن يرى المرء الغذاء أمامه ويعكف على التجريب بروح علمية في الوقت نفسه - ذلك أمر ليس بالإمكان مواصلته إلى ما لا نهاية. لكنني قررت القيام بشيء آخر. عقدت العزم على الصوم كلية طالما بوسعي احتمال ذلك، وفي الوقت نفسه تجنب رؤية الغذاء والإغراء كله تماماً. فإذا ما استطعت أن اجتذب نفسي على هذا النحو، وأمكث راقداً ليلاً ونهاراً بعينين مغمضتين، دون أن أكترث باقتناص الغذاء من الهواء أو التقاطه من الأرض، وإذا، لم أجرؤ على توقع ذلك وإنما راودني أمل واهن فيه، لم أتخذ أياً من الإجراءات المألوفة، وفي مجال الاستجابة فحسب للري اللاعقلاني الذي لا يمكن تجنبه للأرض والتمتمة الهادئة بالتعاويذ والأناشيد (رغبت في حذف الرقص حتى لا أُضعف قواي) فإن الطعام سيأتي من الأعالي من تلقاء ذاته ودون أن يدنو من الأرض سيطرق أسناني طالباً الولوج - لئن حدث ذلك فإن العلم حتى في هذه الحالة لن تفند حججه، إذ إنه يتمتع بما يكفي من المرونة للإقرار بالاستثناءات والحالات النادرة - تساءلت ما الذي ستقوله الكلاب الأخرى التي من سوء الطالع أنها لا تتمتع بمثل هذه المرونة البالغة؟ فلن تكون تلك حالة استثنائية كتلك التي يحملها لنا التاريخ، دعنا نقل على سبيل المثال كالحادثة التي وقعت لكلب رفض سواء بسبب مرض جثماني أو اختلال عقلي

أن يعد الأرض وأن يوالي بالرعاية غذاءه ويسارع باقتناصه والذي قامت الجماعة الكلابية بأسرها بترديد رقية سحرية، ونجحت بذلك في جعل الغذاء ينحرف عن طريقه المعتد إلى فكي الكلب المتمرد. أما أنا فكنت، على العكس من ذلك، صحيح البنية تماماً وفي قمة تمالكي لقواي العقلية، وشهيتي للطعام رائعة حتى إنها حالت بيني طول النهار وبين التفكير في شيء آخر عداها. أضف إلى ذلك، وسواء حظي ذلك بالتصديق أو لم يحظَ، أنني خضعت لفترة صيامي مختاراً، وكنت قادراً على استحضار مؤونتي من الغذاء، ورغبت كذلك في القيام بهذا، من ثم لم أطلب العون من الجماعة الكلابية، بل رفضته حقاً بأكثر الطرق حزماً.

بحثت لنفسي عن مكان مناسب في أجمة لا أضطر فيها إلى سماع حديث عن الطعام، أو صوت فكاك تتمطق أو عظام تقضم. أكلت حتى التخمة للمرة الأخيرة وجثمت أرضاً. أردت أن أمضي وقتي بقدر الإمكان مغمض العينين، وإلى أن يأتي الغذاء ينبغي أن ينسدل ليل متطاول أمامي، على الرغم من سهري، قد يستغرق أياماً أو أسابيع. غير أنني لم أجرؤ خلال ذلك الوقت على الإغفاء كثيراً، وكان من الأفضل حقاً ألا أغفو على الإطلاق -وقد جعل ذلك كل شيء أكثر تعذراً- ذلك أنه لم يكن عليّ أن أستحضر الغذاء فحسب من الهواء، وإنما أن ألتزم الحذر كذلك خشية أن أغط في النوم في الوقت الذي يصل

فيه الغذاء. مع ذلك فإن النوم كان من شأنه أن يلقى ترحيباً مني على الجانب الآخر، حيث إنني سأفلح في الصوم لمدة أطول خلال نومي بالمقارنة بالصوم مستيقظاً. ومن أجل تلك الأسباب قررت تدبر أمر وقتي بحكمة والنوم طويلاً، ولكن في صورة إغفاءات قصيرة دائما. وقد حققت ذلك باللجوء دائماً إلى إرخاء رأسي على غصن هش سرعان ما يتكسر فيوقظني. على هذا النحو جثمت غافياً أو عاكفاً على المراقبة، متابعاً أحلامي، مردداً الأغاني بهدوء لنفسي. مرت نوبات يقظتي الأولى دونما أحداث، ربما لم يلحظ أحد بعد في المكان الذي يأتي منه الغذاء أنني أجثم هنالك خارجاً على المجرى الطبيعي للأمور، وهكذا لم تلح إيماءة واحدة. أزعجني في غور تركيزي الخوف من أن الكلاب الأخرى قد تفتقدني، وتعثر عليَّ في التو، فتحاول إتيان شيء أو آخر يلحق الضرر بي. تمثل ضرب آخر من الخوف في أنه لمجرد إصابة الأرض بالبلل، وإن كانت أرضاً جدباء وفقاً للمكتشفات العلمية، فإن بعض الغذاء النامي بالصدفة قد يظهر فيغويني برائحته. ولكن لبعض الوقت لم يقع شيء من هذا، واستطعت مواصلة الصوم. وبغض النظر عن هذه المخاوف كنت أكثر هدوءاً خلال هذه المرحلة الأولى مما يمكن تذكره عن أي فترة سابقة، وعلى الرغم من أنني كنت في الواقع أعمل جاهداً لإبطال اكتشافات علمية فقد شعرت بثقة عميقة وبإخلاص العلماء الذي يضرب به المثل. في غمار أفكاري ناشدت العلم

الصفح، فلا بد أن تسع رحابه أبحاثي أيضاً. رن في أذني باعثاً العزاء تأكيد أنه مهما كان تأثير أبحاثي، وكلما كان التأثير أعظم حقاً كان ذلك أفضل، فإنني لن أضيع في غمار الحياة الكلابية العادية. وإذ رعى العلم محاولاتي بتعاطف، فسوف يحمل على كاهله تفسير اكتشافاتي، ذلك وعد جاد قصد به أن ينفذ، فيما كنت حتى الآن أشعر بالجرم في قرارتي، وقد ضربت برأسي عرض الحوائط التقليدية لجنسي مثل مخلوق وحشي. لسوف يتم تقبلي بتعظيم وتوقير، أما الدفء الذي طال الحنين إليه للأجساد الكلابية المجتمعة فسوف يلعق فروتي، سأمضي في موكب مرفوعاً على كواهل رفاقي. كانت تلك هي الآثار الجلية لهجمة الجوع الأولى. بدا إنجازي عظيماً لعيني حتى أنني انخرطت في البكاء بانفعال وإشفاق على الذات هناك وسط الشجيرات الهادئة، وهو الأمر الذي ينبغي أن أعترف بأنه ليس أمراً مفهوماً تماماً، فلِمَ البكاء وأنا أتطلع إلى الجائزة التي استحققتها عن جدارة؟ ربما بسبب السعادة المحض، فدائماً حينما أشعر بالسعادة، وذلك أمر نادر بما فيه الكفاية، يداهمني البكاء. غير أنه بعد ذلك سرعان ما تبددت هذه المشاعر. هربت أخيلتي الجميلة خيالاً في أعقاب الآخر أمام الهجوم المباشر لجوعي المتفاقم. بعد قليل وقفت وحيداً، إثر وداع قصير لتصوراتي كافة ولمشاعري السامية، أواجه الجوع المتقد في أحشائي. حدثت نفسي مرات لا تحصى خلال هذه المرحلة قائلاً: «هذا جوعي» وكأنما كنت

أرغب في إقناع نفسي بأنني وجوعي لا نزال شيئين منفصلين وبمقدوري التخلص منه كعاشق مثير للضجر. لكننا في الواقع كنا متوحدين على نحو مؤلم. حينما أوضحت الأمر لنفسي قائلاً: «هذا جوعي» كان جوعي في الحقيقة هو الذي يتحدث ويستمتع بأضحوكته على حسابي. يا لها من فترة بالغة السوء! لا زال تذكرها يثير الرعدة فيّ، ولا يرجع هذا، رجاء ملاحظة ذلك، إلى العناء الذي كنت أقاسيه آنذاك، وإنما لأنني لم أكن مؤهلاً للأمر وقتها، وبالتالي سأحيا مرة أخرى في ظل ذلك العناء إذا أردت التوصل إلى أي شيء، ذلك أني لا زلت أعتقد حتى اليوم أن الصوم هو السلاح الأخير والأكثر قوة للبحث. إن الطريق يمر بأرض الصوم، وإذا أمكن الوصول إلى الأسمى فإن ذلك لن يتم إلا بأشق الجهد، وأشق جهد يمكن أن نبذله هو الصوم من تلقاء أنفسنا. هكذا فإنني حينما أفكر في تلك الأوقات - ولسوف يسعدني قضاء عمري في تأملها- فإنني لا أستطيع مقاومة التفكير كذلك في الوقت الذي لا يزال يتهددني. يخيل إليّ أن التقاط الأنفاس من مثل هذه المحاولة يستغرق عمراً على وجه التقريب. ويمتد عمري بأسره في مرحلة النضج بيني وبين ذلك الصوم دون أن ألتقط أنفاسي منه. وحين أشرع في صومي التالي ربما أكون قد تملكت ناصية المزيد من الحزم بالمقارنة بالمرة الأولى، إلا أن قواي لا تزال تضعفها تلك المحاولة الأولى، من ثم فإنني قد أمنى بالإخفاق لمجرد اقترابي من تلك الأهوال

المألوفة. ولن تساعدني شهيتي الأكثر وهناً، وإنما ستقلل من قيمة المحاولة قليلاً، بل لربما أجبرتني على الصوم لوقت أطول مما كان ضرورياً في المرة الأولى. أعتقد أن الأمر واضح بالنسبة لي في هذه الأمور وأمور أخرى عديدة. لم ينقص المحاولات التجريبية عنصر الوقت، بل كثيراً ما جربت اختبار أنيابي في تجربة الجوع، لكني كنت لا أزال أكثر وهناً من أن أقتحم الجهد النهائي. الآن عبرت بالطبع إلى الأبد فتوة الشباب المكتملة، انداحت إلى البعيد في غمار ضروب الحرمان الهائلة لذلك الصوم الأول. عذبتني ألوان الأفكار كافة. تراءى لي أسلافنا مهددين. حقاً إنني حملتهم المسؤولية عن كل شيء، حتى إن لم تواتني الجرأة على قول ذلك علانية، فقد كانوا هم الذين غمسوا حياتنا الكلابية في الخطيئة، هكذا كان بوسعي الرد بسهولة على تهديداتهم بتهديدات مضادة، لكني انحنيت أمام معرفتهم، فهي مستمدة من منابع لم نعد نعرفها. لهذا السبب، ورغم عنف شعوري بأنني مرغم على معارضتهم، فلن أتجاوز قوانينهم بصورة فعلية، وإنما سأقتصر على التسلل عبر الانكسارات، وهو الأمر الذي أتمتع بموهبة خاصة في القيام به. فيما يتعلق بموضوع الصوم عدت إلى المحاورة الشهيرة التي أعرب خلالها أحد حكمائنا ذات مرة عن اعتزامه تحريم الصيام، إلا أن حكيماً ثانياً أقنعه بهذه الكلمات: «ولكن من ذا الذي سيفكر في الصيام؟» الأمر الذي سمح للحكيم الأول لنفسه

لدى سماعه بالاقتناع، وسحب حظره للصيام. ولكن ألا يثور الآن السؤال التالي: «أليس الصيام محظوراً حقاً في النهاية؟» إن الغالبية العظمى من الشراح تنفي هذا، وتنظر إلى الصيام باعتباره أمراً مسموحاً به، وفق ما يرغب المرء، مشاركين الحكيم الثاني في عدم الشعور بالقلق على الإطلاق حول التبعات السيئة التي يمكن أن تنشأ من التفسيرات الخاطئة. ومن الطبيعي أنني أكدت لنفسي هذه النقطة قبل بدء صومي. ولكن الآن، وبعد أن تلويت ألماً من قرصات الجوع، وفي غمار ضلال ذهني بحثت عما أتلهى به في قائمتي الخلفيتين، فرحت ألعقهما في يأس، وأنهش الهواء باتجاههما علواً حتى إليتيّ. بدا لي التفسير الشائع لهذه المحاورة زائفاً تماماً وعلى طول الخط. لعنت الشرح على المتون، ولعنت نفسي لأنه ضللني، ذلك لأن المحاورة تتضمن، على نحو ما يمكن لأي طفل أن يدرك، ما يفوق مجرد تحريم الصوم، فقد رغب الحكيم الأول في تحريم الصوم، ما يرغب فيه حكيم يصبح أمراً واقعاً، هكذا فإن الصوم محرم. أما فيما يتعلق بالحكيم الثاني فإنه لم يتفق فحسب مع الحكيم الأول وإنما اعتبر الصوم مستحيلاً كذلك، فأضاف بالتالي إلى التحريم الأول تحريماً ثانياً هو تحريم صادر عن الطبيعة الكلبية ذاتها. وقد أدرك الحكيم الأول هذا، فسحب بناءً عليه التحريم الصريح، أي أنه فرض على الكلاب كافة، وفق حسمنا للأمر الآن، التزاماً بأن يعرفوا أنفسهم، وأن يفرضوا تحرياتهم الخاصة فيما يتعلق

بالصوم ها هنا إذن تحريم ثلاثي الأبعاد بدلاً من بُعد واحد، وقد انتهكته. الآن كان بمقدوري الإذعان عند هذه النقطة على الأقل، وإن كان ذلك يأتي متأخراً. ولكن في غمار الألم شعرت بالتوق إلى مواصلة الصوم، فتبعته بشره كما لو كان كلباً غريباً. لم أستطع التوقف، ربما كنت أضعف من أن أنهض بالفعل وأنشد الأمان لنفسي في مشاهد مألوفة. تدحرجت على أوراق الأشجار الساقطة، ما عاد بوسعي بعد الرقاد. سمعت ضجة من كل الجوانب. بدا العالم، الذي كان غافياً خلال حياتي، وكأنما أيقظه صومي. عذبني تصور أنني لن أستطيع الأكل أبداً مرة أخرى وأن عليّ أن آكل لأتهاوى إلى الصمت بهذا العالم الضاج عن نحو صاك حولي، وأنني لن أستطيع إتيان ذلك. لكن الضجة الكبرى كانت تنبعث من جوفي. بعينين فزعتين وضعت أذني عليه، ذلك أني ما كان بوسعي تصديق ما أسمع. الآن وقد أصبحت الأشياء لا تطاق بدت طبيعتي ذاتها وكأنما سيطر عليها السعار، وجعل من محاولاتها لإنقاذ نفسها شيئاً عبثياً. شرعت رائحة الغذاء تداهمني اللذائذ الشهية التي نسيتها منذ أمد طويل، مباهج طفولتي، نعم كان بمقدوري أن أشم عرف أثداء أمي ذاته. نسيت تصميمي على مقاومة الروائح كافة، أو بالأحرى لم أنسها. رحت أجر نفسي جيئةً وذهاباً دون أن أتجاوز أبداً عدة أمتار. تشممت الهواء، كما لو كان ذلك يتفق مع ما صممت عليه، كما لو كنت أبحث عن الطعام لألتزم الحذر

منه. لم تصبني حقيقة أني لم أعثر على شيء بخيبة الأمل، فلا بد أن الطعام هناك، على بُعد خطوات قلائل فحسب، خذلتني قوائمي قبل أن أتمكن من الوصول إليه. لكنني في الوقت ذاته عرفت ألا شيء هناك، وأني أتيت هذه الحركات الواهنة خوفاً من أنني قد أصاب بالانهيار في هذا المكان وأعجز عن مغادرته إلى الأبد. تبددت آمالي الأخيرة، أحلامي الأخيرة. سأهلك هنا بائساً. ماذا أجدت أبحاثي؟ محاولات صبيانية اجترحت في أيام الصبا المفعمة بالسعادة. الآن وفي هذا المكان حلت ساعة جد قاتل. ها هنا كان ينبغي أن تظهر استفساراتي نتائجها، ولكن أين تراها اختفت؟ لا شيء إلا كلباً وحيداً يجثم هنا عاجزاً يعض الهواء. كلب لم يستطع، رغم أنه كان لا يزال يبلل الأرض في عجلة عصبية بين فترات قصيرة، دون وعي منه بذلك، أن يتذكر حتى أقصر الرقى التي لا حصر لها والمختزنة في ذاكرته، ولا حتى تلك التهويمة المسجوعة الصغيرة التي يرددها الجرو حديث الولادة حينما يلتمس الدفء والشبع تحت أمه، بدا لي ما يفصلني عن رفاقي جميعاً لا بقعة صغيرة من الأرض وإنما مسافة لا متناهية، وكما لو كنت سألقى حتفي لا من الجوع وإنما من الهجران، ذلك أنه لاح جلياً ألا أحد يزعج نفسه بأمري، لا أحد تحت الأرض، أو على وجهها، أو فوقها. كانت لا مبالاتهم تقتلني، ودونما اكتراث كانوا يقولون «إنه يحتضر». بدا كأن ذلك سيقع بالفعل. ألم أوافق بذاتي على ذلك؟ ألم أقل الشيء

نفسه؟ ألم أرد هجري على هذا النحو؟ بلى، يا إخوتي، ولكن ليس لكي أفنى في ذلك المكان، وإنما لأبلغ الحقيقة، لأهرب من عالم الزيف هذا، حيث ليس ثمة من يمكنك أن تتعلم منه الحقيقة، ولا حتى مني، أنا الذي وُلدت مواطناً للزيف. ربما لم تكن الحقيقة بعيدة إلى هذا الحد، وأنني لم أهجر على هذا النحو، ومن ثم فإنني، كما رحت أحدث نفسي، ربما أكون قد تعرضت للهجران من نفسي بأكثر مما تعرضت للهجران من رفاقي، وذلك في غمار استسلامي للهلاك وموافقتي عليه.

لكن المرء لا يلقى حتفه بمثل هذه السهولة، كما قد يتخيل كلب عصبي المزاج، فقد أغمي عليّ فحسب، وحينما أفقت، ورفعت عيني، كان ثمة كلب غريب ينتصب أمامي. لم أشعر بالجوع، وإنما بالقوة تملأ كياني. بدا لي أن أطرافي خفيفة رشيقة الحركة، على الرغم من أنني لم أقم بمحاولة لإثبات ذلك بالنهوض من مجثمي. لم تكن ملكاتي البصرية في ذاتها أكثر حدة من المعتاد. انتصب أمامي كلب جميل، وإن لم يكن خارقاً للمألوف على الإطلاق. كان بوسعي أن أرى ذلك. كان ذلك كل ما هنالك. مع هذا بدا لي كما لو كنت أرى شيئاً يفوق هذا فيه. كان هناك دم تحتي ظننته لأول وهلة غذاء، لكنني تعرفت فيه للتو دماً تقيأته. أشحت بناظري عنه إلى الكلب الغريب. كان ناحلاً طويل القوائم، بني اللون مع لمسات من اللون الأبيض تتناثر هنا وهناك، يتمتع بنظرة جميلة نفاذة. تساءل:

«ماذا تفعل هنا؟ عليك أن تغادر هذا المكان!». قلت دون محاولة للإيضاح إذ كيف يمكنني توضيح الأمر، فضلاً عن أنه بدا في عجلة من أمره: «لا أستطيع مغادرته الآن». قال رافعاً إحدى قوائمه في نفاذ صبر وهابطاً بها إلى الأرض مرة أخرى: «من فضلك، امضِ بعيداً». قلت: «دعني حيث أنا اتركني وشأني، ولا تقلق عليّ! الآخرون لا يبدون قلقاً نحوي». قال: «إنني أطلب منك الذهاب لصالحك». أجبت: «يمكنك أن تطلب لما تشاء من أسباب، لا أستطيع الذهاب. حتى إذ أردتُ ذلك». قال مبتسماً: «ما من حاجة تدعوك إلى أن تخشى هذا، بوسعك أن تمضي على ما يرام، وبسبب ضعفك البادي أطلب منك الانصراف الآن، وبإمكانك الذهاب على مهل إذا أحببت، أما إذا تأخرت الآن فستضطر إلى العدو فيما بعد». رددت: «هذا شأني» قال وقد أحزنه عنادي، وإن كان قد بدا واضحاً أنه قرر تركي أجثم في موضعي في الوقت الراهن، وفي الوقت نفسه انتهاز الفرصة لمجاملتي: «وهو شأني أيضاً» كان يمكن في أي وقت آخر أن أستجيب مسروراً لمجاملات مثل هذا المخلوق الجميل. ولكن في هذا الوقت، ليس بوسعي الإفصاح عن الأمر تماماً، ملأتني هذه الفكرة بالرعب. صرخت بصوت متفاقم الارتفاع إذ لم يكن لدي وسيلة أخرى للدفاع عن نفسي: «امضِ بعيداً!». قال متراجعاً ببطء: «ليكن، سأتركك إذن، بديع أنت، ألا أدخل السرور عليك بدوري؟». قلت وإن لم أعد واثقاً تماماً

من نفسي على نحو ما حاولت جعلته يعتقد: «ستسعدني بالمضي بعيداً وتركي في سلام». فجأة بدا أن حواسي التي شحذها الصوم ترى أو تسمع فيه شيئاً ما. كان أمر يبدأ فحسب، يتنامى، يدنو، عرفت أن هذا الكلب يملك قوة طردي بعيداً، حتى وإن لم أستطع تخيل كيف يمكنني في الوقت الراهن النهوض من مجثمي. رحت أحدق فيه -كان قد هز رأسه فحسب في حزن إزاء ردي الخشن- ورغبة تتصاعد في أعماقي. تساءلت: «من أنت؟». رد: «أنا صياد». تساءلت: «ولم لا تدعني أرقد هنا؟» قال: «أنت تثير اضطرابي، لا أستطيع الصيد وأنت هنا». قلت: «حاول! فربما استطعت الصيد في النهاية». قال: «لا، آسف، لكنك ينبغي أن تذهب». ناشدته: «لا تصد هذا اليوم وحده!». قال: «لا، ينبغي أن أقوم بالصيد». قلت: «ينبغي أن أذهب، وينبغي أن تقوم بالصيد، لا شيء إلا أفانين ينبغي هذه. أليس بمقدورك أن توضح لي لماذا ينبغي علينا؟». رد قائلاً: «كلا، لكنه ما من شيء يحتاج إلى إيضاح، فتلك أمور طبيعية واضحة من تلقاء ذاتها». قلت: «ليست واضحة بذاتها على هذا النحو. إنك تشعر بالأسف لأنك ينبغي أن تطردني بعيداً ومع ذلك فإنك تأتي هذا!». أجاب: «الأمر كذلك». رددت كلماته مستاء: «الأمر كذلك، ليس ذلك بالرد. أي تضحية تؤثر القيام بها: أن تتخلى عن صيدك أو تتخلى عن طردي؟». قال دونما تردد: «أن أتخلى عن صيدي» قلت: «هكذا! ألا ترى أنك تناقض نفسك؟».

أجاب: «كيف أناقض نفسي؟ يا كلبي الصغير العزيز! ألا يمكن أن يتمثل الأمر في أنك لا تفهم أنني ينبغي عليّ ذلك؟ ألا تفهم أكثر الحقائق وضوحاً بذاتها؟». لم أحر جواباً حيث أني لاحظت -تدفقت حياة ملء عروقي، حياة كتلك التي يبعثها الرعب- لاحظت من مؤشرات توشك أن تكون خفية، ربما ما كان يمكن لأحد سواي أن يرصدها أن الكلب في أغوار صدره كان يتأهب ليرفع عقيرته بأغنية. قلت: «أتراك ستغني؟». رد جاداً: «أجل، سأغني بعد قليل، ولكنني لم أستعد بعد». قلت: «إنك تشرع في الغناء بالفعل؟». قال: «لا، ليس بعد، لكني أتأهب لذلك؟». قلت مرتجفاً: «بوسعي سماعك بالفعل رغم إنكارك الأمر». التَزَمَ الصمت. عندئذ ظننت أني رأيت شيئاً لم يقدر لكلب قبلي أن يراه، على الأقل ليست هناك أدنى إيماءة إليه في تراثنا. سريعاً أحنيت رأسي في خوف وخجل لا متناهيين في بركة الدماء الجاثمة أمامي. اعتقدت أنني شاهدت الكلب يغني بالفعل دون أن يعرف ذلك، لا بل أجلّ من ذلك، أن اللحن منفصلاً عنه كان يحوّم في الهواء وفق قوانينه الخاصة، وكما لو كان لا شأن للكلب به، راح يقترب مني، مني وحدي. اليوم أنكر، بالطبع، صحة مثل هذه الاستبصارات وأعزوها إلى استثارتي البالغة في ذلك الوقت. ولكن حتى وإن كانت خطأ فإنها حظيت رغم ذلك بلون من الجلال. وهي الحقيقة الوحيدة، وإن تكن مضللة ومراوغة، التي جلبتها إلى هذا العالم من فترة

صيامي، وتظهر على الأقل إلى أي مدى بعيد نستطيع أن نمضي حينما نتجاوز أنفسنا. وقد تجاوزت نفسي بالفعل، وفي ظروف عادية لربما كنت مريضاً عاجزاً عن الحركة، لكن النغم الذي سرعان ما بدا الكلب يقر بأنه صادر عنه كان لا يقاوم إطلاقاً. أخذ يشتد، ويزداد عنفواناً. بدت قوته المتنامية وكأنها بلا حدود، وأوشك بالفعل أن يخترق طبلتي أذني. لكن أسوأ ما في الأمر أنه بدا كما لو كان قد وُجد من أجلي وحدي، هذا الصوت الذي صمتت أمام جلاله الغابات وُجد من أجلي فحسب. من أكون أنا فأجرؤ على المكوث هنا جاثماً في عناد أمامه في بركة دمي وبقاياي؟ نهضت مترنحاً، وحدقت في نفسي. هذا الجسد البائس لا يمكن أن يقدر على العدو أبداً. كان لا يزال أمامي متسع من الوقت للتفكير، لكني وقد استحثني النغم شرعت أنسل من هذه البقعة على نحو بديع. لم أحدِّث أصدقائي بشيء. ربما كان بمقدوري أن أنهي إليهم الأمر كله لدى وصولي، لكني كنت أكثر ضعفاً من أن أقوم بذلك وفيما بعد بدا لي أن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تقال، ضاعت التلميحات التي لم أستطع الإحجام عن طرحها في غمار الحوار العام وبالنسبة للباقين بدوت وكأنني استرددت عافيتي الجثمانية في ساعات قلائل، لكني لا زلت أعاني روحياً من آثار هذه التجربة.

رغم ذلك مضيت بأبحاثي في المرحلة التالية إلى الموسيقى حقاً أن العلم لم يكن كسولاً في هذا المجال كذلك. وربما كان

علم الموسيقى، إذا كان صحيحاً ما حدثوني به، أكثر شمولاً من علم الغذاء، وهو على أي حال يقوم على أسس أكثر رسوخاً. وقد يمكن تفسير ذلك من خلال الحقيقة القائلة بأن هذا الميدان يسمح بمزيد من البحث الموضوعي بالمقارنة بالموضوع الآخر وأن المعرفة فيه تميل إلى أن تكون موضوعاً للملاحظة المحضة والفحص المنهاجي، بينما في ميدان الغذاء يتمثل الهدف الأساسي في تحقيق نتائج عملية، وذلك هو السبب في أن علم الموسيقى يحظى بتقدير أرفع شأناً من علم الغذاء، ولكنه كذلك السبب في أن العلم الأول لم يتوغل أبداً بمثل هذا العمق في حياة الناس. وقد شعرت بنفسي أقل انجذاباً إلى الموسيقى منها إلى أي شيء آخر حتى سمعت ذلك الصوت في الغابة. كانت تجربتي مع الكلاب الموسيقية قد اجتذبتني نحو الموسيقى، لكني كنت في ذلك الوقت صغير السن للغاية. كما أنه ليس من اليسير بحال أن يمتلك المرء ناصية ذلك العلم، حيث ينظر إليه باعتباره علماً باطنياً إلى حد بعيد، وتبعد عنه الجماهير بصورة مهذبة. فضلاً عن هذا فعلى الرغم من أن أبرز ما جذبني بعمق بالغ في البداية إلى هذه الكلاب كان موسيقاها، فإن صمتها بدا لي أكثر أهمية، أما عن موسيقاها المروعة فربما كانت فريدة في نوعها بحيث كان بمقدوري أن أضرب صفحاً عنها، لكن صمتها منذ ذلك الحين واجهني في كل مكان، ولدى الكلاب التي التقيتها كافة. هكذا بدا لي البحث في مجال الغذاء أفضل

سبيل للتوغل في الطبيعة الحقيقية للكلاب، وقدرت أنه سيقودني إلى هدفي من أقرب طريق. ربما كنت محقاً، غير أن مجالاً وسطاً بين هذين العلمين اجتذب بالفعل انتباهي، أعني نظرية الرقي والتعاويذ التي عن طريقها يتم استحضار الغذاء. هنا أقول مرة أخرى راغماً بأنني لم يحدث أن عالجت علم الموسيقى بصورة جادة، بل ولا أستطيع أن أعد نفسي من بين أنصاف المتعلمين، أي الشريحة التي يطل عليها العلم من عليائه أكثر من غيرها. وتلك حقيقة لا أستطيع الهرب منها. ليس بمقدوري -ولدي برهان على هذا لسوء الطالع- أن أجتاز أبسط الاختبارات العلمية التي تجريها هيئة علمية في هذا الموضوع. وبغض النظر عن الظروف التي أوردتها بالفعل، إن السبب في ذلك يمكن الوصول إليه بالطبع في عدم قدرتي على الاضطلاع بالبحث العلمي، وملكاتي الذهنية المحدودة، وذاكرتي المتهالكة، وفي المقام الأول في عجزي عن الإبقاء على هدفي العلمي باستمرار أمام ناظري. وإني لأقر بكل هذا صراحة، بل وأطرحه ببعض السرور، فكلما زاد عمق سبب عجزي العلمي بدا لي غريزة، وغريزة سيئة حقاً. وإذا أردت التباهي لقلت إن هذه الغريزة ذاتها هي التي أطاحت بقدراتي العلمية، فمن المؤكد أنه سيكون أمراً غريباً للغاية إذا ما كان شخص أفصح عن درجة محتملة من الذكاء في معالجة أمر الحياة اليومية، الذي لا يمكن أن يوصف بأنه بسيط وفضلاً عن ذلك فإن مكتشفاته

تم فحصها، وفحصها، حيثما أمكن ذلك، العلماء فرادى إن لم يكن العلم نفسه - سيكون غريباً أن يعجز هذا الشخص مسبقاً عن غرس مخلبه حتى في الدرجة الأولى من سلم العلم. وقد كانت هذه الغريزة هي التي جعلتني -ولربما من أجل العلم نفسه، لكنه علم مختلف عن علم اليوم، علم مطلق- أضع الحرية في مكانة أسمى من أي شيء آخر. الحرية! يقيناً أن حرية كتلك الممكنة اليوم هي أمر بائس. لكنها رغم ذلك حرية، رغم ذلك هي مقتنى نمسكه بأيدينا.

I N Q U I R I E S D O G

روایة

تَحَرِيَّاتُ كَلب

في «تحريات كلب» كما في المسخ والمستوطنه والمحاكمة وكل ما كتب كافكا على وجه التقريب، سنواجه ذلك القلق المحتدم وتلك الرهبة المحلقه، فلا هي تتبدد ولا هي تنقض لتضع نهاية لعالم مجبول من فزع. وهي تنعكس صداماً هائلاً حد التمزق حيث تنْقَض الموسيقى على الجرو الصغير في «التحريات» فتوشك أن تقضي عليه.

يحصر كافكا الجوانب العضوية لحياة البشر ممثلة في الطعام والجوانب الروحية ممثلة في الموسيقى ويمضي بنا عبر تجاربه في استحضار الجانبين، فنوشك ان نحلق معه في سكون الغابة حيث مارس الصوم .

ISBN 978-6589-09-079-3
9 786589 090793

الآن ناشرون وموزعون (الأهلية)
الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص. ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 منشورات 2015